

نولب

الربيع الباكر

رواية :
هرمان هسه

ترجمة :
كاميل يوسف حسين



دار النشر زيدو
بيروت

دار النشر سلم
بيروت

فولب الربيع الباكر

رواية
هرمان هسه

ترجمة
كامل يوسف حسين

دار الوسع
بيروت

دار ابن زيدون
بيروت

حکیم نکے لبا ازیبنا

حقوق الطبع والنشر محفوظہ

الطبعة الأولى

۱۹۸۶/۵۱۴۰ھ

میں
میں

میں
نہیں

میں
میں

میں
میں

مقدمة المترجم

لماذا هسه الآن ؟

يبدو هذا السؤال للقارئ العربي مبرراً تماماً ، إذا ما تذكر ، أنه مع وصول هذا العمل إليه ، تكون المكتبة العربية قد شهدت تباعاً ، وفي مدة قياسية حقاً ، صدور أربعة أعمال للكاتب الألماني هرمان هسه ، هي « سيدهارتا » ، « الرحلة الى الشرق » ، « ذئب البراري » . وأخيراً « نولب » الماثلة بين يدي القارئ .

أليس عجيباً أن كاتباً ولد عام ١٨٧٧ ورحل عن عالمنا في ١٩٦٢ بعد أن وصل الى قمة شهرته عام ١٩٤٦ ومارس أقصى تأثير له على الأدب العالمي في صدر القرن الحالي يظل بهذا الحضور المتوهج على الساحة العربية وكأننا اكتشفناه لتونا فحسب ؟

إن طرح السؤال بهذا الشكل لا يقترب بنا كثيراً من
الامساك بمجموعة الخناثق المراوغة ، التي تختفي خلف علامة
الاستفهام ، التي تصدرت هذه المقدمة ، لأن هذا الطرح
يتجاهل النقطة الأكثر جوهرية هنا . فقد سبق للقارئ العربي
ان عرف هسه ، في مرحلة مبكرة ، وأحب أعماله ، ربما لأنها -
بالمقارنة بأعمال غيره من رواد الرواية العالمية - تنطلق من أشكال
تقليدية ، بمعنى ما ، لترحل نحو تحقيق أهداف الكاتب المركبة ،
والغامضة ، والمستعصية على محاولات التبسيط .

لكن الحضور المتوهج اليوم لهسه ، على الساحة العربية ،
يبدو طبيعياً ومنطقياً ، في هذه المرحلة ، إذا ما تذكرنا أن اسئلة
مثقلة بالهموم ترفرف حول الروح والعقل العربيين في غمار
تصديهما لقضية الحداثة .

إن الحقيقة المذهلة حول هسه الشاعر ، والقاص ،
والرسم ، والروائي في المقام الأول ، هي أن الرجل يتكشف لنا
عن عقلية « شديدة الحداثة » . ويتمثل ذلك لا فيما كان يحاوله
فحسب ، وإنما في الشكل الذي حاول به اجترار مسيرته أيضاً .

بشكل جوهرى ، كان هسه يحاول تحقيق نوع من المصالحة
بين الأضداد ، نوع من « الرَفْع » المذهل بين الموت والحياة ، بين
الروح والطبيعة .

في رواية « بيتر كامينسند » ، نلتقي فلاحاً سويسرياً ، يطير

صيته ككاتب ، لكنه يأبى إلا الرحيل عن فساد الأمكنة في المدن والعودة الى موطنه في الريف ، تماماً كما فعل هسه نفسه ، وكأن هذه الرواية الصادرة في ١٩٠٤ كانت تستشرف آفاق المستقبل . في العام التالي ، تصدر رواية « المعجزة » ، لتسرد أطرافاً من حياة هسه في قالب روائي فريد

وتتعدد محطات رحلة الكاتب في سعيه نحو ذلك التجاوز المراوغ ، الذي ينشده ، فيقدم « روشالد » في ١٩١٤ و « دميان » في ١٩١٩ وسيدهارتا في ١٩٢٢ « وذئب البراري » في ١٩٢٧ « ونرسييس وجولدموند » في ١٩٣٠ و « الرحلة الى الشرق » في ١٩٣٢ و « الاستاذ لودي » في ١٩٤٣

وتصل الرحلة ، التي حملت هسه ليضرب في آفاق الشرق الغامض ، الى أقصى قممها في هذا العمل الأخير ، الذي ترجم وعرف عالمياً باسم « لعبة الكريات الزجاجية » ، التي هي في جوهرها رحلة سعي مضن وراء الكمال ، وبمعنى ما فإنها لعبة هرمان هسه نفسه . وقد لا تعني اللعبة شيئاً ، بالمعنى الذي قصده يونج ، لكنها تروي لنا بشكل ساحر ، لا يجري فيه قط تحديد اللعبة ولا كشف أسرارها ، ربما لأن تلك مهمة منوطة بكل منا على حدة ، في غمار قراءته الخاصة للعمل .

تنتمي الرواية الماثلة بين يدي القارئ ، « نولب » ، الى مرحلة مبكرة من أعمال هسه ، وهي ترصد في نعومة حياة

جواب آفاق ، يمضي عبر المدن والغابات والقرى الصغيرة ليمنح
الدنيا ابتسامة ولحظة صفاء ، ولكن انسيابية العمل ونعومته
هي على وجه الدقة الفخ الذي ينصبه لنا هسه ، ولا امل لنا في
النجاة من فخ الكاتب المراوغ ، الذي لا يفتأ يطالعنا
بالتحديات ، الا إذا حاولنا الأمسك بالأطراف الغامضة للتفسير
الكلي للعمل ، التي تصل الى أقصى تجلياتها وأجملها في الحوار
الذي تختتم به الرواية .

الآن هل نقبل هذا التحدي ؟

الترجم

الشارقة في ٣٠/٥/٨٣

الربيع الباكر

ذات مرة ، في التسعينيات ، اضطر صديقنا نولب الى الذهاب للمستشفى ، حيث قضى هناك أسابيع عديدة . حينئذ تم اخراجه كان ذلك في منتصف فبراير وكان الطقس مقيتاً . بعد أيام قلائل على الطريق ، شعر بالحمى تعاوده ، فأرغم على التفكير في سقف يظله . كان له دائماً عديد من الأصدقاء ، وكاد يلقي الترحاب في كل مدن المنطقة تقريباً ، لكنه كان شديداً الاعتداد بنفسه فيما يتعلق بهذه الأمور ، وكان بوسع أي صديق يتلقى منه نولب المساعدة أن يأخذ ذلك باعتباره مفخرة له .

في هذه المرة تذكر نولب روثفوس الدباغ في بلدة لخشتيتين . حينما أقبل الليل ، وفي قلب المطر والريح الغربية ، طرق باب الدباغ ، فرج روثفوس مصراع النافذة قليلاً ، وصاح باتجاه

الشاعر : « من هناك ؟ الا يحتمل الأمر التأجيل حتى الصباح ؟ » .

إبتهج نولب في غمار اعيائه لدى سماع صوت صديقه ،
تذكر أغنية قصيرة كان قد نظمها قبل سنوات ، حينما كان
وروثفوس رفيقي رحيل طوال شهر ، فشرخ في الغناء .

« دخل رجل المنزل ،

بعد ان انقضى النهار ،

هذه الملامح المتعبة أعرفها جيداً ،

فلا بد أنها ملامح الابن الضال » .

فتح الدباغ مصراعي النافذة على اتساعهما ، وانحنى
مطلا : « نولب ، أهو أنت أم أنه شبحك ؟ » .

صاح نولب : « انه أنا . . . لكن بوسعك أن تهبط على
الدرج . ما من حاجة تدعوك الى القفز من النافذة » .

هبط الدباغ مسرعاً ، وقد غمرته السعادة . فتح الباب
الخارجي الصغير ، إضطر نولب الى اغماض عينيه نصف
اغماضة ، حينما رفع صديقه المصباح النفطي ، الذي ينبعث منه
الدخان عاليا امامه .

صاح روثفوس في انفعال ، وهو يجذب صديقه الى داخل
الدار : « الآن هلم الى الداخل ، بوسعك ان تحدثني بكل شيء

فيما بعد ، هناك بعض من طعام العشاء وفراش لك ايضاً ، يا
الهي الطيب . . . أي طقس يمكث فيه المرء خارج الدار . . .
هل لديك حذاء جيد على الأقل . . . ؟ » .

توقف نولب على الدرج ، متجاهلاً أسئلة صديقه ودهشته ،
ليفض ثنيات سرواله ، التي كان قد رفعها الى اعلى ، ثم صعد
الدرج المعتم بثقة ، رغم ان قدمه لم تطأ الدار منذ أربع
سنوات .

في منتصف الطريق ، بين الباب والحجرة الكبرى ، تردد ،
فحشه الدباغ على الدخول ، لكن نولب أمسك بذراعه ،
واستوقفه .

همس : « انتظر ، يبدو أنك متزوج الآن ؟ » .

— « هذا صحيح » .

— « طيب ، لعلك تدرك ان زوجتك لا تعرفني ، وربما لا
يسرها أن تراني ، ولست أرغب في أن أكون مصدر ضيق » .

— « هو . . هو . . مصدر ضيق . . » .

ضحك روثفوس ، ودفع نولب الى الحجرة المتألقة
بالضوء . فوق مائدة الطعام كان هناك قنديل يتدلى من ثلاث
سلاسل ، كانت سحابة خفيفة من دخان الطباق تحوم في
الهواء ، وتخلق نفثات خفيفة من الدخان في طريقهما الى المدفأة ،

حيث تنثني متصاعدة ، وتتبدد ، على المائدة امتدت جريدة
وكيس حافل بالطباق ، هبت زوجة الدباغ الشابة واقفة من
الأريكة الصغيرة ، في الجانب البعيد من الغرفة ، في ارتباك
ونشاط لا يمازجه الابتهاج بصورة حقيقية ، بدت كما لو كانت قد
أوقظت من اغفائه ، بينما هي ترغب في ان تخفي ذلك ، للحظة
أغمض نولب عينيه باتجاهها ، كما لو كان بريق الضوء قد
أعشاهما ، ثم تطلع الى عينيها الرماديتين الفاتحتين ، ومد يديه
محيا في مجاملة ودية .

قال الدباغ : « طيب ، ها هي زوجتي ، وهذا نولب ،
صديقي نولب الذي حدثتك عنه ، طبيعي انه سيمكث معنا ،
وسنعد له فراش مساعد في العمل ، من حسن الحظ انه
شاغر ، لكننا سنحتسي أولا عصير الفاكهة معاً ، ولا بد لنولب
من شيء يأكله ، ألم يبق بعض من سجق الكيد ؟ » .

أسرعت زوجة الدباغ تغادر الغرفة ، تابعها نولب
بناظريه .

قال بصوت خفيض : « انها منزعجة بشكل ما » . لكن
روثفوس لم يوافق على ذلك .

سأل نولب : « أليس هناك اطفال بعد ؟ » .
هنا عادت الزوجة حاملة السجق فوق صفحة معدنية ،
وضعتها الى جوار حامل الخبز ، الذي وضعت فوقه نصف

رغيف نحى جانبه المقطوع الى اسفل ، وعلى امتداد حامل الخبز
نقشت كلمات : خبزنا كفاف يومنا أعطنا اليوم » .

– « ليز ، أتعلمين ما الذي سألني نولب عنه توأ ؟ » .

قال نولب بابتسامة ، وهو يلتفت ناحية ربة الدار : « لننس
الأمر بإذنك يا سيدتي » . لكن روثفوس ما كان لينساه .

– « سألني عما إذا لم يكن لدينا أطفال » .

– « يا الهي ! » .

قالتها الزوجة ضاحكة ، وغادرت الغرفة من جديد .

سأل نولب حينها خرجت الزوجة : « أليست حاملاً ؟ » .

– « كلا ليس بعد ، انها تمضي على مهل ، من الأفضل ان
تسير الأمور كذلك بالنسبة للسنوات القلائل الأولى ، ولكن
عليك بالطعام ، وآمل ان يروق لك » احضرت زوجة الدباغ
ابريق العصير ذا اللونين الرمادي والازرق الحائلين ، وضعت
ثلاثة اكواب على المائدة ، واطرعتها ، كانت حركاتها رشيقة ،
راقبها نولب ، وابتسم .

– « نخبك يا صديقي ! »

صاح الدباغ ، رافعا كأسه ، ولكن نولب كان رجلاً
مهذباً ، قال :

— « السيدات أولاً ، نخبك يا سيدي ، نخبك أيها
الصديق العجوز ! » .

قرعوا كؤوسهم ، وشربوا ، أوماً روئفوس ناحية زوجته
متهللاً ، وسألها عما اذا كانت قد لاحظت أخلاق صديق
الكريمة .

كانت قد لاحظت ذلك منذ البداية ، قالت :

— « السيد نولب اكثر تأدبا منك ، فهو يعلم ما هو سليم
ومناسب » .

قال الضيف :

— « غير صحيح ، إننا جميعا نفعل ما تعلمناه ، وجئنا
بتعلق الأمر بالأخلاق فإن من اليسير جعلي أشعر بالعار ، وكم
هو جميل النحو الذي أعددت به المائدة ، حتى ليماثل أفخم
الفنادق » .

— « أليست ماهرة ؟ » .

قالها الدباغ ، وضحك مضيفاً « لكن ذلك أيضاً جرى
تعلمه » .

— « حقاً ؟ أين ؟ هل كان والدك صاحب نزل ؟ » .

— « كلا ، لقد توفي أبي منذ سنوات ، ولم اكد اعرفه ،
لكنني كنت أقوم بإعداد الموائد طوال سنين عديدة في فندق

أوكس ، ربما سمعت عنه ؟ » .

— « فندق أوكس ؟ كان ذلك أفضل الفنادق في الخشتيتين » .

— « ولا يزال ، أليس الأمر كذلك يا إميل ؟ كان كافة
النزلاء تقريباً من التجار والسياح » .

— « أصدقك يا سيدي ، ويطيني أنك أمضيت حياة
سعيدة ، وجمعت مبلغاً طيباً من المال ، ولكن تملك منزل خاص
بك امر أفضل كثيراً » .

بعد أن أزال الجلد ، ووضع جانياً في طبقه ، قام ببطء
وبمهارة واضحة بنشر السجق الرقيق على سطح الخبز ، وبين
الحين والآخر راح يتناول رشفة من العصير الأصفر طيب
المذاق ، مضى الدباغ يرمقه بتقدير يشي بالاحترام ، بينما يدا
نولب الرشيقتان الرقيقتان تمعان في القيام بالحركات الضرورية
برهافة ورقة ، وداخل السرور ربة الدار كذلك ، وهي تراقبه .

— « لا بد لي من القول بأنك لا تبدو على ما يرام » .

قالها الدباغ بصيغة الانتقاد ، فاضطر نولب الى الاعتراف
بأنه لم يكن في صحة جيدة مؤخراً ، وأنه كان في المستشفى ،
لكنه تجاوز الاجزاء المجزنة من قصته . سأله صديقه عما يعتزم
القيام به عقب ذلك ، وعرض بحرارة استضافته بقدر ما يشاء ،
كان ذلك على وجه الدقة هو ما توقعه نولب ، وعول عليه ،

ولكنه اكتفى - كما لو كان الحياء قد غلبه - بتقديم الشكر الى صديقه ، وأجل مناقشة مثل هذه الموضوعات .

قال في تراخ : « يمكننا الحديث عن ذلك غداً أو بعد غد ، حمداً لله ان العالم ليس في طريقه الى الانتهاء ، على أية حال سأملك هنا بعض الوقت » .

كان يمتد وضع الخطط ، أو الادلاء بوعود لفترات طويلة مقبلة ، ويشعر بالضيق ما لم يكن الغد ملك يمينه ، يتصرف فيه كيف يشاء .

بعد وقت قصير قال : « إذا كان لا بد لي حتماً من البقاء هنا بعض الوقت فعليك ان تتخذ مني مساعداً لك في العمل » .

قال الدباغ ضاحكاً : « يا للكرم ! أنت مساعدي ! انك لست دباغاً ، على كل حال » .

- لا يهم ، ألا تدرك الأمر ؟ إن الدباغة لا تعني شيئاً بالنسبة لي ، يقال انها مهنة رائعة ، لكني لا أملك موهبة القيام بهذا العمل . غير انها ستبدو رائعة حينما ادرجها في دفتر التجوال » .

- « هل بوسعي ان اشاهد دفترك ؟ »

تحسس نولب الجيب الداخلي لحلته الجديدة ، أخرج دفتر تجواله ، وقد غلف على نحو انيق بغلاف زيتي اللون .

تطلع إليه الدباغ ، وضحك قائلاً ؛ « بلا بقعة واحدة . . .
يبدو كما لو كنت قد تركت أمك صباح أمس فحسب » .
راح يفحص الأماكن التي وصلها نولب والاختام الرسمية
التي تثبت ذلك ، وهز رأسه بإعجاب عميق ، قال ؟ « ياله من
نظام رائع . . . كل شيء بين يديك يصبح موضعه الصحيح »
كان الحفاظ على دفتر التجوال في صورة منسقة إحدى هوايات
نولب حقاً ، كان دفتره بكماله المتألق خيلاً يبعث
البهجة ، كان قصيدة ، كان كل إشعار دخول لمكان موثق رسمياً
يحمل دليلاً على محطة مجيدة في حياة شريفة حافلة بالجهد ، وكان
الملح الوحيد الذي يبدو ناتئاً هو عدم استقراره ، الذي تشهد
عليه عمليات التغيير في محل الإقامة ، كانت الحياة التي يقف هذا
الجواز الرسمي شاهداً عليها من ابتكار نولب ، وبحذق بالغ
نسج الخيوط الواهية لهذا المسار العجيب في الحياة ، وعلى الرغم
من انه اتى بقليل مما كان محظوراً صراحة ، فقد كان يحمل على
كامله وقر الوجود المقيت وغير الشرعي لجواب الآفاق ، وبالطبع
ما كان من الممكن ان يمضي دون تضيق الخناق على خياله
البديع لولا ان الشرطة كانت تغض الطرف عنه ، واعتاد رجالها
التعامل باحترام مع هذا الشاب المرح الودود لذكائه اللامح
ولجديته ، وتركوه وشأنه بقدر ما وسعهم ذلك ، ونادراً ما ألقى
القبض عليه ، ولم تتم ادانته على الاطلاق بالسرقة او التسول ،
وكان له أصدقاء يحظون بالتوقيع في كل مكان . ترتب على ذلك

ان السلطات كانت تعامله كما تعامل قطعة بديعة المنظر في الدار ،
وتركته وشأنه يمضي في حياة لا تعترها المتاعب ، يوشيه الكسل
والروح المترفة .

قال نولب مستعيداً أوراقه : « يكفي هذا في الوقت الحالي ،
لو أنني لم أقبل لكنت الآن في فراشك منذ زمن طويل » .
وبانحناءة مجاملة لربة الدار نهض واقفا .

— « تعال يا روئفوس ، أرني موضع فراشي » .

أضاء الدباغ الدرج الضيق المؤدي الى غرفة المساعد بالطابق
العلوي ، الى جوار الحائط كان هناك فراش خشبي ، رتبت عليه
الاغطية ، وله كلة هيكلها من الحديد .

سأل الدباغ بلهجة أبوية : « هل تفضل زجاجة من الماء
الساخن ؟ » .

قال نولب ضاحكا : « لا تقل ذلك ، طبيعي أن دباغاً
ماهراً مثلك لن يحتاج اليها ، خاصة في الوقت الحالي ، وله مثل
هذه الزوجة الشابة الجميلة » .

بحماس قال روئفوس : « تماما ، ها أنت ذا تأوي الى
فراش بارد في طابق علوي ، وفي بعض الأحيان قد لا يكون
هناك فراش على الاطلاق ، فتضطر الى الرقاد فوق القش ، بينما
حرفي شريف مثلي يمتلك داراً وعملاً وزوجة جميلة ، ولو أنك
أردت فحسب لكان بوسعك منذ وقت طويل ان تصبح حرفياً

مبرزاً في عمله ، وان تفوقني فيما وصلت اليه » . في الوقت نفسه سارع نولب الى نزع ملابسه ، وزحف مرتعداً بين الملاءات الباردة .

قال : « إستمر ، إستمر ، إنني مرتاح ، وعلى استعداد للاستماع » .

— « إنني أعني ما أقول جدياً يا نولب ! » .

— « وكذلك أنا ، يا روثفوس ، ولكن عليك الا تضع في ذهنك ان فكرة الزواج هي من ابتكارك ، الآن طابت ليلتك » .

في اليوم التالي ظل نولب في الفراش ، كان لا يزال يشعر بالضعف البالغ ، وعلى أية حال ما كان له ان يخرج في مثل هذا الطقس ، وفي الصباح ، حينما اقبل صديقه ، قال له نولب الا يقلق بشأنه ، وأن يحضر له فحسب طبقاً من الحساء وقت الغذاء .

رقد طوال اليوم هادئاً مغتبطاً في العتمة الخفيفة التي تميز الغرفة العليا . إنزلق برد الطريق ووعشاؤه بعيداً عنه ، فامتلاً بالشعور بدفء المأوى . أخذ يصغي لصوت المطر المنتظم ، وهو يهطل فوق السقف ، ولدفقات الريح الدافئة اللينة ، وبين الحين والآخر يلفه النعاس لنصف الساعة ، حين يفيق يتصفح أوراق مكتبته المتنقلة ، طالما كان الضوء كافياً لذلك . كانت صفحات قلائل من الورق نسخ عليها قصائد وأقوالاً ، وحزمة من

قصاصات الصحف وبضع صور قصصها من المجلات ، كان يؤثر من بين هذه الصور صورتين ، تجعدتا وحال لونهما لطول تلمسهما ، كانت إحداهما للممثلة اليانورا دوس ، والأخرى لسفينة شراعية صغيرة تمخر البحر ، والرياح تلفها .

كان البحر والشمال يجتذبان نولب منذ نعومة أظفاره . وفي مرات عديدة شرع في سلوك هذا الاتجاه ، وذات مرة مضى حتى برونسفيك ، لكنه في كل مرة كانت تهيمن عليه نوبة من القلق وحنين الى الوطن يدفعان هذا المهاجر ، الذي ما كف يوما عن الترحال وما كان يوسع ان يستقر في اي مكان ، الى جنوبي المانيا من خلال مسيرات يبدو مرغماً عليها ، بدت عفويته كما لو كانت تغادره حينما يجد نفسه في مكان يتحدث أهله بلكنة غريبة ، ويمارسون عادات غير مألوفة ، حيث لا أحد يعرفه ، ويتعذر عليه ان يبقى دفتر تجواله الاسطوري منسقاً .

عند الظهيرة جلب له الدباغ الحساء والخبز . دخل الغرفة بهدوء ، وتحدث في همس يشوبه الخوف ، إعتقد أن المرض قد حل - لا بد - بساحة نولب ، لأنه لم يسبق له هو نفسه على الاطلاق أن رقد في الفراش خلال النهار منذ أيام اصابته بالحصبة والجديري ، ولم يكلف نولب ، الذي كان في حالة طيبة ، نفسه عناء الايضاح ، واكتفى بالقول بأنه سيكون على ما يرام خلال اليوم التالي .

عند الأصيل قرع الباب ، كانت سنة من النعاس قد أخذت نولب ، فلم يرد ، خطت زوجة الدباغ الى الغرفة على أطراف أصابعها ، أزاحت طبق الحساء الفارغ ، ووضعت دلة القهوة والقدرح على المقعد الى جوار الفراش .

كان نولب قد سمعها وهي تدخل ، لكنه أبقي عينيه مغمضتين ، سواء لأنه كان يشعر بالكسل ، أو لمجرد أن ذلك خطر له ، ولم يبد إشارة تدل على انه مستيقظ ، ألقت المرأة الشابة ، وهي تقف هناك حاملة الطبق الفارغ في يدها ، نظرة على الرجل الراقد الذي كانت رأسه ترتاح على ذراعه ، الذي غطته منامته الزرقاء ذات المربعات ، أذهلها شعره السبط الفاحم وحسن وجهه المطلق ، الذي يوشك ان يكون طفولياً ، فوقفت برهة ، وهي ترمق الشاب الوسيم الذي حدثها زوجها بأقاصيص بالغة الغرابة عنه ، رأت حاجبيه الكثيفين على جبينه الرقيق التكوين وخديه الأسيلين ، اللذين لوحتهما الشمس وفمه البديع القاني وعنقه الرشيق ، فأحبت ما رأت ، راحت تفكر في تلك الأيام التي كانت تعمل خلالها في فندق أوكس ، حينما كانت تراودها خيالات الربيع ، فتدع غريباً شاباً وسيماً كهذا الغريب يطارحها الغرام .

إنحنت قليلا نحوه ، وقد لفتها الأفكار ، وغمرتها إثارة خفيفة ، لتملى وجهه كله ، إنزلقت الملعقة المعدنية من الطبق ،

وهوت على الأرض . مع سكون المكان وحميميته الباعثة على الحرج ، غمرها خوف مميت .

فتح نولب عينيه ببطء ، ودون تشكك كما لو كان غارقاً في النوم ، التفت اليها ، ظلل عينيه بيده للحظة ، قال مبتسماً : « إنها السيدة روثفوس . . . وقد جلبت لي القهوة ، دلة جميلة من القهوة الساخنة ، الشيء ذاته الذي كنت احلم به ، شكراً أيتها السيدة روثفوس ، بالمناسبة كم الساعة الآن ؟ » .

— « الرابعة » . قالتها على عجل « الآن تناول القهوة وهي ما تزال ساخنة ، سأحضر فيما بعد لأخذ الدلة » .

سارعت بالخروج ، كما لو لم تكن لديها لحظة تهدرها . أصغى نولب لخطوها ، وهي تهبط الدرج بسرعة ، تطلع الى حيث مضت ، شابت الأفكار صفاء عينيه ، هز رأسه مرات عديدة ، ثم اطلق صفير طائر رقيق ، والتفت الى قهوته .

لكنه بدأ يشعر بالسأم قبل ساعة من حلول الظلام ، كان قد استرد عافيته ، واستراح بصورة رائعة ، كان ينشد من يشاركه شجونه ، نهض من الفراش مغتبطاً ، إرتدى ملابسه ، دلف هابطاً الدرج المعتم بهدوء قطة ، وغادر الدار دون أن يلحظه احد . كانت الريح الرطبة لا تزال تهب من الجنوب الغربي ، لكن المطر كان قد توقف ، وبدت نتف من الصفاء تتخلل السحب .

راح نولب يستنشق الهواء ، سار الهوينى في الطريق المعتم ،
وعبر السوق المهجور ، ثم توقف في الباب المفتوح لحانوت
الحداد ، استفسر عن معارفه العديدين في المدينة ، عن حالات
الوفاة والزواج ، اعتقد صاحب الحانوت انه حداد ، حيث كان
نولب يعرف مفردات كافة الحرف والاشارات ، التي يتعرف من
يمارسونها من خلالها أحدهم على الآخر .

في الوقت ذاته ، كانت السيدة روثفوس تعد حساء المساء
وتعبث بالدوائر الحديدية للفرن الصغير ، وتقشر البطاطس .
حينما انتهت من الاعداد ، وأخذ الحساء يغلي برفق سالماً فوق
النار الهادئة ، حملت مصباح المطبخ ، مضت الى الغرفة
الكبيرة ، ووقفت امام المرأة ، ألقت في صقالها ما كانت تهفو
اليه : وجهاً بدرياً ذا خدين متوردين وعينين رماديتين -
زرقاوين ، لم يبد شعرها منظماً تماماً ، فأعادت اليه تنسيقه بلمسة
اولمستين من أصابعها ، جففت يديها اللتين غسلتهما منذ لحظات
فحسب مرة أخرى في منديلها ، التقطت المصباح ، ومضت
مسرعة الى الدور العلوي .

طرقت باب غرفة المساعد ، برقة في البداية ، ثم بصوت
اعلى قليلاً ، حينما لم تسمع رداً ، وضعت المصباح على الأرض ،
وفتحت الباب بكلتا يديها بحذر بالغ ، حتى لا يند عنه صوت ،
ثم دخلت على اطراف أصابعها ، خطت خطوة ، مرت بيدها
فوق المقعد الى جوار الفراش .

— « أنائم أنت ؟ » .

تساءلت بصوت لين ، تم رة اخرى :

— « أنائم أنت ؟ جئت لأحمل أدوات القهوة » .

حينما لم يند صوت ، أي صوت ، حتى مجرد تنفس ، مدت يدها نحو الفراش ، لكنها سحبته بسرعة بشعور خفي ، مضت خارجة لتجلب المصباح ، ألقت الحجرة خاوية والفراش مرتباً بعناية ، بل وقد هذبت الوسائل والحشية ، إندفعت عائدة الى المطبخ في اضطراب ، وقد تناهباها الخوف والاحباط .

بعد نصف ساعة ، حينما أقبل الدباغ لتناول طعام العشاء ، وبعد ان أعدت المائدة بالفعل ، شرع القلق ينتابها ، لكنها خشيت من ابلاغ زوجها بزيارتها للغرفة العلوية ، عندئذ فتح الباب الخارجي ، وعبرت خطوات رهيفة الوقع الممر الممهد ، وصعد صاحبها الدرج ، وهناك وقف نولب ، نزع قبعته البنية ذات الحواف ، وحيأها تحية المساء .

صاح الدباغ مذعوراً : « يا للسما ! أين كنت ؟ مريض ويمضي خارج الدار متجولاً في الليل ! سوف تلقى حتفك » .

قال نولب : « أصبت ، أرى يا سيدة روثفوس اني اقبلت في الوقت المناسب ، لقد شممت رائحة حسائك الشهية عند لسوق ، ذلك سيبعد حتفي عني » .

جلسوا لتناول الطعام ، كان رب الدار يشعر بالميل
للحديث ، فمضى يتغنى بمآثر حياته العائلية ومزايا كون المرء
حرفياً مبرزاً في حرفته ، راح يداعب الضيف ، ثم شرع يحضره
بجدية ، فقد حان الوقت ليكف عن التسكع دون القيام
بعمل . أصغى نولب دون ان يحير جواباً ، لم تفه زوجة الدباغ
بينت شفة ، كانت تشعر بالضيق من زوجها الذي صدمها ببعده
عن الدمثة بالمقارنة بنولب الوسيم المهذب ، وأظهرت رأيها
الطيب في الضيف من خلال العناية التي كانت تلبي بها مطالبه ،
حينما دقت الساعة العاشرة حياها نولب ، وطلب من الدباغ ان
يقرضه شفرة حلاقة .

أعرب روئفوس عن تعجبه قائلاً : « هل رأيت احداً بمثل
هذه النظافة ؟ في الثانية التي تنمو فيها لحيته تتعين محلاتها ،
طيب ، طابت ليلتك ، آمل ان تشعر بالتحسن » .

قبل ان يأوي نولب الى غرفته أطل من النافذة الصغيرة
الكائنة قرب اعلى الدرج ، ليلقي نظرة على حالة الطقس ،
ويرى ما يحدث في الحي ، سكنت الريح ، وبين اسقف الدور
كانت هناك رقعة سوداء من السماء حفلت بالنجوم الصافية ،
التي راحت تومض وميضاً بارداً .

كان على وشك ان يسحب رأسه ويغلق النافذة ، حينما
أبصرت النافذة المقابلة له في المنزل المجاور فجأة ، شاهد غرفة

صغيرة منخفضة تماثل إلى حد بعيد غرفته ، دلفت خادمة شابة إلى الغرفة ، حاملة شمعدانا نحاسيا في إحدى يديها ، وفي اليد الأخرى إبريق ماء ، وضعت على الأرض ، ثم رفعت الشمعة فوق الفراش الصغير ، كان الفراش المغطى بغطاء احمر خشناً بسيطاً ولكنه كان نظيفاً يدعو إلى الرقاد ، وضعت الشمعدان في موضع لم يستطع تبينه ، وجلست على صندوق خشبي منخفض ذي طلاء أخضر اللون ، هو مثال لصندوق أي خادمة شابة .

في اللحظة التي بدأ فيها هذا المشهد غير المتوقع يتكشف كان نولب قد أطفأ شمعته ليتجنب امكانية رؤيته ، وقف الآن في هدوء يحدق مطالا من نافذته

كانت الفتاة التي لمحها عبر الطريق من النوع الذي يستهويه ، ربما لم تتجاوز الثامنة عشر أو التاسعة عشر ، لا تقبل إلى الطول ، ذات بشرة خمرية جذابة وعينين بنيتين وشعر أصهب مسترسل ، لم تلح السعادة على وجهها الهاديء الجذاب ، بدت مثقلة بالهموم ، وهي تقتعد صندوقها الأخضر هناك ، راودت نولب الذي عرك الدنيا وخبر الفتيات كذلك فكرة واضحة ، قوامها أن الفتاة المسكينة لم تغادر القرية التي ولدت بها الا منذ وقت قريب بصندوقها ذاك ، وانها تعاني من الحنين إليها . وضعت يديها داكنتي البشرة في حجرها ، وسعت وراء قسط من الراحة بجلوسها للحظات فوق مقتنياتها الضئيلة والتفكير في الدار .

التزم نولب عند نافذته السكون ذاته الذي ران على الفتاة في
غرفتها، ومضى يحدق بشغف غريب في هذه الحياة الانسانية
المجهولة الغارقة في براءة بالغة في حزنها الرقيق في ضوء
الشموع، دون ان تأخذ في الحسبان ان احداً قد يراقبها، رأى
عينها البنيتين الرقيقتين حينما تتألقان وحينما تغطيهما الأهداب
الطويلة، شاهد الضوء الأحمر يتماوج في رقة فوق خديها
الحمريين الطفليين. وبينما هو يراقب يديها الشابتين الرشيقتين
فوق حجرها القطني قاتم الزرقة علم انها كادحتان وأنها
ترتاحان لبرهة قبل ان تعكفا على نزع الثياب، وهي المهمة
اليومية الأخيرة.

رفعت الفتاة أخيراً رأسها بجذائلها الثقيلة المثبتة بالمشابك،
تهتدت، تطلعت، بكأنا في حلم، وإن لم يقل شعورها
بالأسى، الى الفراغ، وانحنت لتحل أربطة حذائها.

تردد نولب في مغادرة مكانه، لكنه خطر له فجأة أنه من
الخطأ بل ومن القسوة بمكان ان يراقب الطفلة المسكينة وهي تنزع
ثيابها، ولو انه ناداها، وثرثر معها لبعض الوقت، وان يطرح
الطرائف التي تجعلها تمضي الى الفراش وهي أسعد قليلاً، لكنه
خشى ان يصيبها الذعر فتطفئ شمعته اذا ما ناداها.

لجأ بدلاً من ذلك الى احدى حيله القديمة، فشرع في الصفيح،
كان الصوت خافتاً للغاية الى حد أنه بدا كما لو كان يتناهى

من البعيد ، راح يصفر الأغنية الشعبية « في واد أخضر بارد تدور
عجلة الطاحونة طوال اليوم » ونجح في جعل صفيـره خافئاً
ورقيقاً ، بحيث ان الفتاة اصغت لبعض الوقت دون ان تعرف
كنهه على وجه الدقة ، في خلال المقطوعة الثالثة فحسب نهضت
ببطء ، ومضت الى النافذة .

انحنت وراحت تصغي بينما واصل نولب الصغير ،
وللحظات قصار مضت تهز رأسها مع النغمة ، ثم تطلعت فجأة
فشاهدت مصدر الصغير .

تساءلت في همس : « أيجاد أحد هناك ؟ » .

أجاب نولب بالركة ذاتها : « صبي دباغ فحسب ، لم أتعمد
منعك من الرقاد ، كنت أشعر بالحنين قليلاً الى بلدتي ، فظننت
أن بعض الصغير يخفف عني ، لكنني أعرف كذلك بعض الألحان
المرحة ، هل أنت غريبة هنا كذلك ؟ » .

— « إنني من الغابة السوداء » .

— « آه ، من الغابة السوداء ، وكذلك أنا ، هل تُحيين
الحياة هنا في لخشتيتين إنني لا أحبها على الاطلاق » .

— « أوه ، لست أدري بعد ، فلم أقض هنا الا أسبوعاً ،
لكنني لا احبها كثيراً حقاً ، هل جئت منذ وقت طويل ؟ » .

— لا ، منذ ثلاثة أيام فحسب ، من أي قرية أنت ؟ » .

— « الا تستطيع ان تعرفها ؟ » .

— « ليس بوسعك التخمين ام ترى ذلك سرأ ؟ » .

— « اختوسين انها قرية صغيرة فحسب » .

— « لكنها قرية جميلة ، أول ما تلمحين منها الكنيسة ، ثم هناك طاحونة ، طاحونة لنشر الخشب فيما أظن ، ثم هناك كلب أصفر ضخمة ، هل أصبت أم أخطأت ؟ » .

— « يا الهي انه بيلو ! » .

حينما أدركت انه يعرف قريتها وانه كان هناك بالفعل تبدد الشطر الأعظم من تشككها . إنحنت وتساءلت بشغف : « هل تعرف أندريز فليك » .

— « لا ، لا أعرف أحداً هناك . هذا والدك ، أليس كذلك ؟ » .

— « أجل » .

— « لا بد اذن أنك الآنسة فليك ، وحينما اعرف اسمك الأول سيكون بوسعي ان اكتب لك بطاقة بريد في المرة التالية التي امر فيها بأختوسين » .

— « هل ترغب في مغادرة هذا المكان سريعاً ؟ » . .

— « لا أريد ذلك ، يا آنسة فليك ، لكنني أريد ان أعرف اسمك الأول » .

— لكني لا أعرف اسمك كذلك .

— معذرة لهذا ، لكنه أمر سهل تداركه ، اسمي كارل
ايرهارد ، والآن إذا ما تقابلنا نهرا فأنت تعلمين بم يمكن ان
تناديني ، ولكن بم أناديك أنا ؟
— « بربارا » .

— « شكرا ، هذا جميل ، لكنه اسم صعب النطق ،
وأراهن أنهم في الدار يدعونك بربيلي - » نعم ، انهم ينادونني
به ، ولكن اذا كنت تعرف كل شيء فلم تسأل أسئلة كثيرة على
هذا النحو ؟ والآن حان وقت الرقاد ، طابت ليلتك أيها
الدباغ .

— « طابت ليلتك يا آنسة بربيلي ، نوما هنيئاً ، ومن اجلك
انت سأصفر لحناً آخر ، لا تسرعي بالإصراف بعيداً فليس
هناك مقابل للعزف » .

شرع في الصغير بلحن مرح حافل بارتفاع النغمة
وانخفاضها وتقلبها ، حتى لتتفاضل وتتألق موسيقى الرقص ،
أصغت اليه حتى النهاية ، وقد أذهلتها مهارته ، وحينما توقف
سحبت مصراعي النافذة ببطء ، وأحكمت اغلاقها ، بينما
تلمس نولب طريقة الى غرفته في الظلام .

نهض نولب مبكراً في الصباح التالي ، واستخدم شفرة

الدباغ . كان هذا الأخير قد أطلق لحيته لسنوات ، وكانت الشفرة مهمة للغاية ، بحيث اضطر نولب الى شحذها طوال نصف ساعة قبل ان تجز الشعر ، وحينما فرغ ارتدى معطفه والتقط حذاءه وهبط الى المطبخ حيث كان الهواء دافئاً يضوع برائحة القهوة .

طلب من زوجة الدباغ فرشاة وبعض الطلاء لحذائه .
صاحت :

دعه ، ليس ذلك من عمل الرجال ، دعني أقم به .
لكنه لم يكن ليوافق على ذلك ، وحينما وضعت أخيراً بضحكة يساورها الارتباك الفرشاة والطلاء امامه ، قام بالعمل بدقة واتقان ويسر يلفه المرح شأن رجل اعتاد القيام بالعمل اليدوي بصورة عرضية فحسب ، حينما يكون في حالة مزاجية تسمح له بذلك ، ولكنه حينئذ يقوم به بمرح وبعناية بالغة .

ـ « جميل » .

قالتها زوجة الدباغ باعجاب ، ورنث اليه مضيضة : « متألق كما لو كنت ذاهباً لملاقة حبيبك » .

ـ « وددت لو كان ذلك صحيحاً » .

ـ « أصدقك ، وأراهن ان لك حبيبة جميلة » .

ضحكت مرة اخرى ، وقالت معرضة : « وربما أكثر من واحدة » قال نولب في لهجة تشي باللوم : « أوه ، لن يكون ذلك جميلاً بوسعي ان اريك صورتها » .

اقتربت منه بشغف ، وهو يخرج إضمامته من جيبه ، ويتنزع منها صورة دوس ، راحت تفحصها باهتمام ، وانشأت تقول بحذر : « إنها من طبقة رفيعة الشأن ، كأنها سيدة حقيقية لكنها مهزولة الى حد ما ، هل صحتها على ما يرام ؟ » .

— « أوه ، نعم بقدر ما أعلم ، لكن على الآن الذهاب لتحية العجوز ، بوسعي ان اسمعه في الغرفة الكبرى » .

مضى الى الغرفة ، وبادر الدباغ بتحية الصباح ، كانت الغرفة قد رتبت ، بدا مظهرها اليفا ودوداً بالواحها الخشبية الفاتحة اللون وساعاتها ومرآتها والصور المعلقة على الحائط ، وراودت الأفكار نولب ، إن غرفة دافئة ومريحة كهذه ليست بالشيء السيء في الشتاء ، ولكنها لا تستحق ان يتزوج المرء من اجلها ، لم يكن الاهتمام الذي تبديه زوجة الدباغ به مصدر سرور له على الاطلاق .

حينما ارتشفوا قهوتهم ، مضى خارجاً مع روثفوس ، الذي تجول به في انحاء المدبغة ، كان نولب يلم بكافة الحرف تقريباً ، وأذهل صديقه بأسئلته التي تعكس معرفة دقيقة .

تساءل في حيوية : « كيف عرفت كل هذا ؟ يكاد المرء

يعتقد انك مساعد دباغ أو على الأقل أنك كنت كذلك يوماً .

قال نولب في تواضع : « الجوال يتعلم كافة الأمور ، فكر في الأمر ، لقد تعلمت الدباغة منك . هل تذكر ؟ منذ سبع أو ثماني سنوات ، حينما كنا على الطريق معاً جعلتك تحدثني بكل شيء عن الدباغة » .

– « ولا زلت تذكر كل ذلك » .

– « بعضه ، يا روثفوس ، لكنني لن آخذ المزيد من وقتك ، ذلك أمر سيء للغاية ، كان بودي ان أساعدك ، لكن الجورطب ومتجلد للغاية هناك ، وما زلت أعاني من ذلك السعال ، الى اللقاء أيها العجوز ، سأقوم بجولة صغيرة في البلدة طالما ان المطر لا يهطل » .

وبحذائه المتألق وقبعته البنية المصنوعة من اللباد التي املأها الى الخلف قليلاً ، انطلق بخطى خفيفة نشطة ، متجنباً البرك الموحلة . وقف روثفوس عند الباب يتطلع اليه .

– « رجل محظوظ » .

راودت الفكرة الدباغ ، وقد عرته وخزة من الحسد ، وفي طريقه الى المواضيع المخصصة للدبغ راح روثفوس يفكر في صديقه غريب الأطوار الذي لا ينشد شيئاً من الحياة الا ان يتأملها ، ولم يكن بوسعه ان يقرر اذا كان ذلك مطالبة بأكثر أو

بأقل مما ينبغي ، ان الرجل الذي يعمل بجهد ويشق طريقه أفضل
حالاً في العديد من الجوانب ، لكنه لم يتمكن أبداً من ان تكون
له مثل هاتين اليدين الرشيقتين الدقيقتين ، او أن يخطو بمثل
هذه الخطوة الرشيقة الوثابة ، كلا ، إن نولب على حق في القيام
بما تتطلبه طبيعته ، ربما يستطيع قلة من الآخرين القيام به ، وفي
الحديث مع الغرباء مثل طفل وكسب قلوبهم ، وفي التفوه بأشياء
تبعث السرور لدى السيدات من كافة الأعمار ، وفي جعل كافة
أيام الأسبوع تبدو كأيام الأحاد ، بوسعك فحسب ان تأخذه على
نحو ما هو عليه ، وحينما يحتاج الى سقف يظله فإن تقديم هذا
السقف له يغدو مصدر سرور وتكريم ، حقاً إنك لتوشك على
ان ترغب في تقديم الشكر له لأنه جلب الخفة والمرح الى الدار .
في الوقت ذاته راح ضيفه السعيد والذي ملأه الفضول
يتريض عبر المدينة ، وهو يصفر لحناً عسكرياً ، ويكرس وقته في
السعي وراء الأماكن والأشخاص الذين كان يعرفهم في الأيام
الخوالي ، تسلق في البداية تلاً منحدرًا إلى حي بائس كان يعرف
فيه حائكاً تعساً ، اسمه شلوتربيك ، كان يعكف بلا انتهاء ،
على رتق السراويل القديمة ، ونادراً ما كان يعهد اليه باعداد حلة
جديدة ، أمر يدعو للرتاء ، فقد كان ماهراً في حرفته ، كان قد
بدا بآمال كبار ، وعمل في حوانيت متميزة ، لكنه تزوج شاباً ،
وكان لديه بالفعل العديد من الأطفال ، وكانت موهبة زوجته في
رعاية الدار محدودة .

ألفى نولب الحائك في الطابق الثالث من دار متراجعة عن
امتداد الشارع ، تدلى حانوته كأنه وكنة طائر معلقة في الفراغ ،
حيث كانت الدار قد شيدت على جانب التل ، وحينما تطل من
النوافذ فإنك لا تجد الطوابق الثلاثة وحدها بأسفلك ، وإنما
كذلك تجد منحدرًا مائلاً تغطيه حدائق بائسة مائلة ، وبقاعا
غطاها النجيل ، تنتهي بأقنان الدجاج الرمادية ، التي تسودها
الفوضى ، وأقفاص الأرانب ومخازن الخشب ، أما أقرب
الأسقف التي يمكن رؤيتها فتقع بعيداً في سفح الوادي ، غير أن
الحانوت كان منيراً متجدد الهواء ، وكان بوسع الحائك ، وهو
يجلس امام مائدته الضخمة قرب النافذة ، أن يطل على العالم ،
كأنه حارس فنار .

« عم صباحاً ، يا شلوتريك ! » .

قالها نولب وهو يدخل الغرفة ، حدد الحائك نظره الذي
بهره الضوء الساطع ، وحدق في اتجاه الباب .
صاح بفرح وهو يمد يده :

« آه ، نولب . . . عدت الى المدينة . . . وما الذي دهاك

فدفعك عبر كل هذه المسافة الى هنا ؟

جذب نولب مقعداً عالياً ذا ثلاث أرجل ، اقتعده ، وقال :

« أعطني إبرة وقليلاً من أفضل خيوط الصوف البني عندك ، أريد
أن أتفحص أدواتي » .

نزع معطفه وصديريته ، وانتقى خيطا ، فأدخله في سم

الخياط ، وبعينين يقظتين تفقد حلته بكاملها . كانت تبدو جيدة ، كما لو كانت جديدة ، وحيثما اكتشف بقعة ناحلة او وصلة توشك ان تتفكك ، أو زراً غير محكم التثبيت كان يصلح من شأنه بأصابع ماهرة .

تساءل شلوتربيك : « وكيف حالك فيما يتعلق بالأمور الأخرى ؟ لم يسبق ان كان الطقس رائعاً على هذا النحو ، ولكن لو ان المرء كان في صحة جيدة ولا تثقله عائلة . . . » .
ابتلع نولب لعابه متأهبا للجدال .

قال في ارهاق : « نعم ، بالطبع ، الرب يسقط أمطاره على الأخيار والأشرار على السواء ، والحائكون وحدهم هم الذين تظل ثيابهم جافة ، لكنك لا تقنع ابداً ، هل انت قانع يا شلوتربيك ؟ » .

— « أوه ، نولب ، لست أشكو ، لكن أصغ الى الأطفال وهم يصرخون هناك ، ثمة خمسة أطفال الآن ، وها أنذا أجلس هنا ، مستخدماً أصابعي حتى العظام الى وقت متأخر من الليل ، وأبدا لا يكفي ذلك ، وكل ما تقوم به أنت هو التسكع هنا وهناك » .

— أنت مخطيء يا صديقي ، لقد كنت في المستشفى في نيويستات ، حيث قضيت شهراً أو شهراً وأسبوعاً ، وهم لا يبقون أحداً للحظة أكثر بما تقتضيه الحاجة القصوى ، وما من

أحد يمكث أكثر من ذلك على أية حال ، إن طرق الرب غريبة
أيها الصديق شلوتربيك » .

— « إحتفظ بأقوالك الورعة لنفسك » .

— « فقدت إيمانك إذن ؟ كنت أحاول فحسب أن أستعيد
إيماني ، وذلك هو السبب الذي جئت من أجله لأراك ، أريدك
ان تحدثني بالأمر كله » .

— « لا تضايقني بالحديث عن الايمان ! . أقلت في
المستشفى ؟ آسف لسماع ذلك » .

— « لا تكثرث ، لقد انتهى الأمر ، أريدك ان تحدثني عن
الكنائسيات والوحي ، تدرك أني أتيح لي الكثير من الوقت في
المستشفى ، كان لديهم انجيل ، قرأته كله تقريباً ، لذا فإن
بوسعي أن أدلي بدلوي كذلك ، كتاب غريب ذلك الانجيل » .

« لقد عثرت على شيء بين دفتيه ، غريب ، ليكن ، لا بد أن
نصفه أكاذيب ، لأنه ما من شيء فيه يتسق مع الأشياء
الأخرى ، ربما تفهمه أنت بشكل أفضل لأنك كنت تترتاد
المدرسة اللاتينية » .

— « لست أذكر الكثير عن ذلك » .

— « تدرك بانولب . . . ! »

بصق الحائك عبر النافذة المفتوحة وحقق أمامه ، ارتسمت

المرارة على وجهه ، قال :

— « ليس الدين بالشيء الطيب ، فلا نفع فيه ، وقد
سئمته ، سئمته » .

تطلع إليه جواب الآفاق ، وهو غارق في التفكير : « أحقا ؟
ألم تذهب أبعد مما ينبغي أيها الصديق العجوز ؟ يبدو لي ان
الانجيل يضم بعض الأمور الجيدة للغاية » .

— « بالتأكيد ، وحينما تمعن في القراءة تجد دائماً العكس ،
كلا ، لقد ضقت ذرعاً به ، ضقت ذرعاً » .
كان نولب قد نهض ، والتقط مكواه .

قال معترضاً : « بوسعك أن تضع بضع قطع من الفحم
على النار » .

— « ولم ؟ »

— « أود أن أقوم بكي صديرتي ، ولن يضير الأمر قبعتي
كذلك ، بعد كل هذا المطر » . صاح شلوتريك ببعض
الضيق : « الا تزال ذلك المتأنق القديم ذاته ! ما جدوى ان
ترتدي ملابس كالدوق حينما تكون على وشك التضور
جوعاً ؟ » .

ابتسم نولب بهدوء : « يبدو المرء في شكل أفضل ، كما أن
ذلك يبعث السرور في نفسي ، وإذا لم ترغب في القيام بذلك

بدافع من التقوى ، فقم به لتكون مهذباً ولتسعد صديقاً
قديماً ..

غادر الحائك الغرفة ، وسرعان ما عاد بمكواه ساخنة .

قال نولب : « جميل ، شكراً لك » .

بحذر شرع في كي حافة قبعته ، لكنه لم يكن ماهراً في الكي
قدر مهارته في الحياكة ، أخذ صديقه المكواة من يديه ، وقام
بالكي بنفسه .

قال نولب : « رقيق منك للغاية ان تقوم بذلك ، الآن
عادت قبعة يوم الأحد مرة اخرى ، لكن تأمل أيها الحائك ،
إنك تطلب أكثر مما ينبغي من الانجيل ، ووفق ما أتصوره فإن
على كل امرئ ، أن يخمن لنفسه ما هو حق وما هي طبيعة
الحياة ، تلك أمور لا يسعك ان تتعلمها من أي كتاب ، إن
الانجيل عتيق ، وفي تلك الأيام لم يكن الناس يعرفون الكثير مما
نلم به اليوم ، ولكن لهذا السبب عينه هناك الكثير من الأشياء
البديعة بين دفتيه وأمر حقيقة كذلك ، اعتقد ان اجزاء منه مثل
كتاب جميل مصور. تأمل النحو الذي سارت به تلك الفتاة -
روث - تلتقط بقايا الحصاد عبر الحقول ، إنها بديعة ، بوسعك
ان تشتم عبق الصيف فيها ، او النحو الذي جلس به المخلص
مع الأطفال الصغار ، وراح يفكر : إنكم تعنون بالنسبة لي أكثر
مما بعني أولئك الكبار بخيلائهم ، واذا وجهتم السؤال إلي فإنه

كان محقاً وبامكاننا أن نتعلم منه » .

أقر شلوتربيك : « نعم ، تلك حقيقة ، ولكن من الأيسر القيام بذلك مع أطفال الآخرين عن أن يكون لك خمسة أطفال ولا تعرف كيف تعولهم » .

استسلم لحالة من الاكتئاب المرتد . ولم يستطع نولب تحمل رؤيته على هذه الحال ، فعزم على أن يقول ما يجعله يبتهج قبل أن يتركه ، تفكر قليلاً ، ثم انحنى تجاه الحائك ، وتطلع إلى وجهه بعينه اللامعتين وقال بنعومة : « ولكن لا تحب أطفالك ؟ »

حرق الحائك في نولب فزعاً : « بالطبع أحبهم ، كيف يمكنك قول مثل هذا الشيء ؟ بالطبع أحبهم ، وخاصة الأكبر منهم » .

أوماً نولب ، وقال « أنا ماض الآن يا شلوتربيك ، ولك جزيل شكزي ، صديرتي الآن تعادل ضعف ما كانت تشاويه ، لكن عليك أن تكون راضياً ومبتهجاً بأطفالك ، ذلك هو المأكل والمشرب لهم ، والآن أصغ إليّ ، سأحدثك بشيء لا يعرفه أحد ، ولست بحاجة إلى أن تردده » .

رمق الحائك بانتباه عيني نولب الصافيتين ، وقد استعاد سكينته ، بدت الجدية في عيني نولب ، وراح يتحدث بنعومة ، بحيث وجد الحائك صعوبة في فهمه :

« أنظر اليّ ، إنك تحسدني ، وتقول لنفسك : ليست لدي عائلة أو مخاوف ، لكنك تخطيء تماماً ، إن لي طفلاً ، مخلوق صغيراً لا يتجاوز العامين ، مضى به غرباء لأن أباه كان مجهولاً ، ولأن أمه ماتت في أعقاب ولادته ، ما من حاجة تدعوك الى ان تعرف المدينة التي يوجد بها ، لكنني أعرف ، وحينما أمضي الى هناك ، أزحف الى الدار ، أقف الى جوار السور ، انتظره وحينما يواتيني الحظ أرى الصغير ، لكنني لا أستطيع ان أمد يدي نحوه لأمنحه قبلة ، وأقصى ما أستطيع القيام به هو ان أصفر لحناً له ، بينما أمر قريباً ، طيب ، هكذا تمضي الأمور ، الآن الى اللقاء ، وكن سعيداً لأن لك أطفالاً » .

يم نولب شطر المدينة ، توقف للحظة ليتجاذب أطراف الحديث عند نافذة حانوت الخراط ، وراح يراقب الدوران السريع لقشور الخشب المتجعدة التي تمت ازالتها ، توقف عقب ذلك ليحي مسؤول الأمن ، الذي يحمل له المودة ، والذي بادر فقدم له صندوق سعوطه المصنوع من خشب البتولا ، حينما مضى كان الأصدقاء القدامى يقصون عليه أكبر وأقل أحداث الأسرة والحانوت شأناً ، سمع عن الموت المفاجيء الذي داهم زوجة محاسب البلدية ، وعن الكيفية التي أمعن ابن العمدة بها في اساءة التصرف ، وبالمقابل حدثهم نولب بالأحداث التي جرت في المدن الأخرى ، مستمتعا بالروابط المتينة التي وثقها هنا وهناك كصديق وكمشارك في الأسرار مع الأعضاء الأكثر استقراراً

في مجموع المقيمين بالمدينة ، وكان اليوم هو السبت ، توقف عند
بوابة معمل التقطير ليسأل رؤساء العمال عن الأماكن التي
ستجري بها حفلات الرقص في هذا المساء والمساء التالي .

كانت هناك أماكن عديدة ، لكن أفضلها كان في مرقص
« الأسد » في بلدة جير تلفنجن على بعد مسيرة نصف ساعة
فحسب ، قرر أن ذلك هو المكان الذي سيمضي إليه بصحبة
برييلي ، الفتاة التي تقطن في المنزل المجاور .

كان وقت الغذاء قد حان ، على وجه التقريب ، وحينما
صعد نولب درج دار روئفوس ، كانت رائحة شهية على نحو
بهيج تفوح في طريقه ، وقف ساكناً ، نفخ في راحته ببهجة
وشغف طفوليين ، على الرغم من خفة خطوته كانت زوجة
الدباغ قد سمعته ، فتحت باب المطبخ على مصراعيه ووقفت في
المدخل المضيء وقد لفتها سحابة من بخار ما تطهوه .

صاحت بانفعال : « آه ، السيد نولب ، يسعدني انك
عدت مبكراً هكذا ، وكما ترى لدينا فطائر الكبد ، وظننت أن
بوسعي ان احمر شريحة من الكبد خصيصاً لك ، إذا احببت ، ما
رأيك ؟ » .

حك نولب ذقنه بيده وأوماً مجاملاً .

— « لم يتعين أن يعد شيء خاص من أجلي ؟ سأكون سعيداً
للغاية بصحبة من الحساء فحسب » .

— « لا تقل هذا ، فحينما يكون الرجل مريضاً يتمثل
للشفاء فإنه يحتاج الى تغذية سليمة ويتوجب عليه ان يسترد
قوته ، ولكن لعلك لا تؤثر الكبد ، إن البعض لا يحبونه » .

ضحك في تواضع ، وقال : « أوه ، لست واحداً من
هؤلاء ، إن طبقاً منه هو طبق يوم الأحد ، سوف اكون سعيداً
تماماً »

— « ما دمت معنا ينبغي ان تحصل على كافة ما ترغب فيه ،
والا ففيم كان تعلمي الطهي ؟ عليك بالحديث فحسب ، هناك
شريحة اضافية من الكبد احتجزتها لك ولسوف تفيدك » .

اقتربت منه ، منحته ابتسامة مشجعة ، فهم تماماً ما عنته ،
كانت جميلة للغاية ، لكنه تظاهر بأنه لم يلاحظ شيئاً ، اخذ يعبث
بقبعته الجميلة التي قام الحائك المسكين بكيها ، اشاح بناظريه .

— « شكراً يا سيدة روثفوس ، شكراً لقرتك ، لكني حقاً
أفضل الفطائر ، لقد دلتني بما فيه الكفاية حتى الآن » .

ابتسمت ، وتوعدته مادة اصبعها نحوه : « لست بحاجة
الى ان تتصرف بمثل هذا الخجل ، إنه لا يقنعي على أية حال ،
لتكن الفطائر اذن ، مع الكثير من البصل ؟ »

— « ليس بوسعي ان ارفض ذلك » .

ارتدت في انهماك الى فرنها ، بينما مضى اا

حيث كانت المائدة قد أعدت بالفعل . جلس . يطالع صحيفة
الأمس الى أن أقبل الدباغ وقدم الحساء ، حينما انتهت الوجبة
لعب ثلاثتهم الورق لبعض الوقت ، وأذهل نولب مضيقته
بحيلة الجديدة والقائمة على التلاعب بالصدفة من خلال
الورق ، كانت له طريقة بارعة مريحة في نشر مجموعة ورق اللعب
وطيها بسرعة البرق ، كان يلقي ورقته على المنضدة بحركة
رشيقة ، وبين الحين والآخر يمرر طرف أصبعه فوق خافة
أوراقه ، راح الدباغ يراقبه بالاعجاب والاستغراق الذي تثيره
المهارات التي لا يمكن اكتسابها فيمن يقوم بعمل شاق ، لكن
زوجته راحت تراقب هذه المؤشرات باهتمام العارف ، تركزت
عينها بانتباه على أصابع نولب الطويلة الرشيقة التي لم يلق
العمل الشاق ظلال التشوه عليها .

عبر النوافذ الصغيرة تسلك شعاع رفيع ومتردد من أشعة
الشمس الى الغرفة ، وعبر المائدة والأوراق ، وتلاعب مع
الظلال الواهنة على الأرض ، وتسلك في وجل السقف الشاحب
الزرقاء . التمتعت عينا نولب وهو يلتقط كل شيء : تلاعب
شمس فبراير ، سلام الدار وسكينتها ، وجه صديقه الجاد الذي
اضناه العمل الشاق ، ونظرات الزوجة الجميلة الخفيفة ، لم
يجب ذلك ، فلم يكن هذا هدفه في الحياة ، لم يكن ذلك هو
ضرب السعادة الذي ينشده ، مضى يحدث نفسه ، لو ان صحي

كانت أفضل ، ولو ان الوقت كان صيفاً لما مكث هنا ساعة واحدة .

— « أظن أني سأتابع الشمس لبعض الوقت في مسيرتها » .

قالها فيما روثفوس يلتقط أوراق اللعب ويتطلع الى ساعة الحائط ، هبط الدرج مع الدباغ وغادره في مخزن التجفيف مع سكاكينه ، مضى يضرب عبر البقعة المعشبة التي امتدت بفواصل من بقاع الدباغة حتى النهر ، هنا كان الدباغ قد بنى ركيزة صغيرة ممتدة ليقف عليها بينما يغسل الجلود ، اقتعد نولب الركيزة تاركاً ساقيه تتدليان فوق المجرى الصامت المتدفق ، راح يراقب في ابتهاج الاسماك الداكنة المنطلقة هنا وهناك تحت قدميه ، ثم مضى يتفحص ما يحيط به ، محاولاً التوصل الى وسيلة للحديث مع الفتاة الصغيرة التي تعمل في الدار المجاورة .

كانت حديقتا الدارين متجاورتين لا يفصلهما إلا سور خشبي مهشم ، ومنذ وقت طويل وبفعل الماء تحللت اخشاب السور . كان بوسع المرء عبوره دون صعوبة من حديقة الى اخرى . بدت حديقة الدار وكأنها تلقى رعاية تفوق ما تلقاه بقعة الدباغ الخضراء التي طال فيها النجيل وتشابك ، استطاع نولب ان يلمح أربعة احواض خضراوات صغيرة ، وقد تجاوزتها الأعشاب في النمو خلال موسم الشتاء . وصفين هزيلين من الخس والسبانخ الشتوية وعدداً من شجيرات الورد المنحنية ،

وقد دفعت بتيجانها في الأرض ، وعلى مبعده كانت هناك أشجار
تنوب عديدة حجبت الدار .

عقب فحص دقيق لحديقة الجار زحف نولب في صمت حتى
أشجار التنوب ، ومن خلالها استطاع ان يشاهد الدار والمطبخ في
الجانب الخلفي منه ، لم يضطر للانتظار طويلاً قبل ان يشاهد
الفتاة ، وقد شممت عن ساعديها ، وانهمكت في العمل ، كانت
ربة الدار معها توجه التعليمات ، وترى شيئاً ثم آخر ، على نحو
ما يتعين على النساء ان يفعلن حينما لا يرغبن في دفع اجر خادم
محكمة فيقمن بتشغيل خادم مبتدئة جديدة كل عام ثم ينسقن في
كيل المديح للفتاة التي غادرتهن لتوها ، لكن لهجتها وهي تدلي
بتعليماتها وترصد الأخطاء لم تكن مشوبة بالخبث ، وكانت الفتاة
الجديدة فيما يبدو قد اعتادتها بالفعل ، فقد مضت في عملها
بهدوء ، ودون ان ينعقد حاجباها .

وقف المتسلل مستنداً الى احدى الأشجار ، راح يراقب ما
يجري ويصغي بيقظة قناص وصبر رجل ليس وقته بالثمين اعتاد
التمتع بالحياة كمتفرج ، سره ان يراقب الفتاة حينما تلوح في
النافذة ، وأصغي باقي الوقت ، وأدرك من حديث ربة الدار انها
من الخشتيتين ، وإن كانت من منطقة أبعد عبر الوادي ، اخذ
يمضغ طرف أملود يضوع عطراً من شجرة التنوب ، ويصغي في
اناة لمدة نصف ساعة ثم نصف ساعة آخر إلى أن اختفت ربة

الدار أخيراً ، ولف الصمت المطبخ .

انتظر قليلاً ، ثم اقترب بهدوء . طرق نافذة المطبخ بغصن جاف ، لم تبد الفتاة اكتراثاً ، فاضطر الى الطرق ثانية ، أقبلت هذه المرة نحو النافذة نصف المفتوحة ، فتحتها على مصراعيها ، وأطلت منها .

قالت هامسة في دهشة : « يا إلهي ، ماذا تصنع هنا ؟ لقد أوشتك على افزاعي » .

قال نولب بابتسامة : « كيف يسعني ان اخيف احداً ؟ لقد أردت فحسب تحيتك ومعرفة أخبارك ، واليوم أيضاً هو السبت ، فأردت ان أسأل عما اذا كان بإمكانك التنزه معي ظهر الغد » .

هزت رأسها ، بدت ملامحها وقد كستها الرهبة الى حد انه شعر بالأسف لها حقاً ، قالت بلهجة ودودة : « كلا ، لن ابرح الدار غداً ، سأخرج في الصباح الى الكنيسة » .

غمغم نولب : « لكن بإمكانك اذن الخروج معي هذا المساء » .

— « هذا المساء ؟ نعم ، لن يكون لدي عمل ، اعتزم كتابة رسالة لأهلي » .

— أوه ، ستكتبين رسالتك متأخرة لمدة ساعة ، فلن ترسل

الليلة على أية حال ، كنت مشوقاً للحديث معك ، وبإمكاننا أن نقوم بنزهة رائعة هذا المساء ، إذا لم تمطر السماء ، كوني لطيفة ، هل انت خائفة مني ؟ »

— « لست خائفة من أحد ، ولا منك بالتأكيد ، لكني لا أستطيع ، فلو انهم رأوني بالخارج مع رجل ... » .

— « لكن يا برييلي ما من احد يعرفك هنا ، ثم ان ذلك ليس خطيئة ولا يعني احداً ، أنت لم تعودي بعد طالبة في مدرسة ، لذا عليك بعدم النسيان ، سأنتظر في الثامنة الى جوار قاعة الرياضة المجاورة لسوق الماشية ، أم هل ينبغي ان احضر قبل ذلك ؟ بوسعي ذلك اذا شئت » .

« لا ، ليس قبل ذلك ، لا ... لا تحضر اطلاقاً ، مستحيل . لا أستطيع » .

رمقها بنظرته الطفولية المكتئبة ، قال بحزن : « طيب اذا كنت لا تودين ، بدا لي انك وحيدة تماماً وغريبة هنا وأنتك تعانين الحنين الى الدار احياناً ، وكذلك أنا ، وكان بوسعنا أن نترى قليلاً ، كنت أود أن أسمع المزيد عن اختوسين لأنني ذهبت الى هناك يوماً لكنني لا أستطيع ارغامك ، فلا تسيئي فهم الأمر » .

— « لم أسئ الفهم ؟ كل ما هنالك أني لا أستطيع فحسب » .

— « ليس لديك عمل هذا المساء يا بربيلي ، أنت لا تريد
الحضور فحسب ، لكنك قد تغيرين رأيك ، عليّ ان أمضي
الآن ، لكنني سأكون خارج قاعة الرياضة هذا المساء ، وإذا لم
يأت احد فسأترىض وحدي وأفكر فيك وأنت تكتبين الرسالة الى
اختوسين ، فإلى اللقاء ، ودون مشاعر مريرة » .

أوماً مسرعاً ، مضى قبل ان تتمكن من إضافة المزيد ،
شاهدته يختفي خلف الأشجار ، فبدت الحيرة على محياها ،
عادت الى عملها ، وفجأة شرعت - وقد خرجت ربة الدار - في
الغناء ملء قلبها .

سمعها نولب ، كان يجلس من جديد على ركيزة الدباغ
وهو يلقي قطعاً صغيرة في شكل كرات من الخبز كان قد وضعها
في جيبه وقت الغذاء ، راح يسقط كرات الخبز برفق في الماء
واحدة اثر الأخرى ، ويراقبها بشغف ، وهي تطفو قليلا مع
التيار ، وتهبط الى القاع المعتم ، حيث تلتقطها الاسماك الصامته
كالأشباح .

قال الدباغ على مائدة العشاء : « طيب ، اليوم هو السبت
أخيراً ، ليس بوسعك ان تدرك كيف يبدو ذلك رائعاً بعد أسبوع
شاق » .

— « أوه ، بوسعي ان اتخيل » .
قالها نولب بابتسامة ، ابتسمت السيدة روئفوس أيضاً ،

ورمقته بنظرة عابثة .

قال روثفوس بنغمة مرحة . « الليلة ، الليلة ، الليلة سنتناول
زجاجة من الجعة معاً ، وفي الغد إذا ما كان الطقس جميلاً
سنخرج في نزهة طويلة فما قولك في ذلك أيها الصديق
العجوز ؟ » -

ضربه نولب مداعباً في كتفه ، قال : « الحياة رائعة معك
هنا ، عليّ أن أقر بذلك أنا مشوق الى نزهتنا ، لكنني سأكون
مشغولاً هذا المساء ، فلي صديق هنا ، يعمل في حانوت الحداد
وسيترك البلدة في الصباح ، المعذرة لكننا سنقضي الغد كله معاً
وإلا لما كنت ربت الأمر على هذا النحو » .

- « لكنك لا تستطيع ان تمضي متسكعاً في الليل ولما تبلى
من مرضك بعد » .

- « ليست المبالغة في تدليل نفسي بالأمر الطيب ، لن أتاخر
طويلاً ، أين تحفظون المفتاح حتى يمكنني دخول الدار » .

- « يا لك من رفيق عنيد ! ليكن ، إمض اذا ما تحتم ان
تنطلق ، ستجد المفتاح وراء مصراع النافذة السفلى ، أتعرف
المكان ؟ » .

- « بالطبع ، طيب ، سأمضي الآن ، لا تنتظري طابت
ليلتك ، طابت ليلتك يا سيدة روثفوس » .

هبط الدرج ، كان قد بلغ الباب الخارجي حينما أقبلت
زوجة الدباغ تعدو خلفه ، دفعت اليه بمظلة ، فاضطر نولب الى
تناولها راغماً ، قالت : « نولب ، عليك إن تعني بنفسك ، والآن
سأريك موضع المفتاح » .

أمسكت بيده في الظلام ، قادتة خلف الدار ، توقفت قرب
نافذة صغيرة .

قالت في همس مستثار ، وهي تلاطف يده : « إننا نضع
المفتاح خلف المصراع ، مد يدك خلف الفتحة فحسب وستجده
على قاعدة النافذة » .

قال نولب : « شكراً لك » . وسحب يده في خرج .

تساءلت ضاغطة في رفق بقربه :
هل يمكنني الاحتفاظ بوجاجة من الجعة لك » .

— « لا ، شكراً يا سيدي روثفوس ، أنا لا أتناول أي
شراب عادة خلال الليل ، طابت ليلتك ، وشكراً لك » .

ضغطت ذراعه ، وهمست وقد غلبتها العاطفة : « هل انت
في عجلة من امرك ؟ » كان وجهها قريباً من وجهه ، وفي
الصمت الذي لفه الارتباك ، وفي غمار رغبته في الايزيحها
بالقوة ، مرر يده فوق شعرها .

قال بصوت بالغ في رفعه : « على ان امضي الآن » وتراجع
عن موضعه .

إفتر ثغرها عن ابتسامة ، كان بإمكانه أن يرى أسنانها تلتمع
في الظلمة . وبصوت بالغ الرهافة قالت : « إذن سأنتظر حتى
تعود الى الدار ، فأنت أثير لذي » .

غذ السير نحو الشارع المظلم ، ومظلته تحت ابطه ، وعند
المنعطف التالي شرع ، تخلصاً من ضيقه ، يصفر لحن أغنية
تقول :

« تظن أني سأصحبك ،
أوه ، لا ، أنت لست لي ،
فالعار يجعلني أرغب في أن أهزك ،
حين أكون بصحبتك » .

كان الهواء عبق الرائحة . وهنا وهناك لاحت نجمة في
السماء المعتمة ، وفي احد الفنادق كان بعض الشباب يقضون
امسية صاخبة ، وخلف نوافذ ملعب البولينج الجديد في فندق
« الطاووس » شاهد مجموعة من المواطنين ذوي الحيشة يرتدون
قمصانهم الطويلة الاكمام ، وهم يقدرون ثقل الكرات ،
ويدخنون السيجار .

عند قاعة الرياضة توقف نولب ، وتلفت حوله ، غنت
الريح الندية في نعومة عبر اشجار الكستناء الحارة ، تدفق النهر

دوئما صوت في الظلام الكثيف ، الذي لا تقطعه الا انعكاسات الضوء الصادر من نافذة او نافذتين فحسب ، هدا الليل الساجي كل خلية من خلايا جواب الآفاق ، فراح يستنشق الهواء بحميمية الربيع ودفء الطقس وجفاف الطرقات ، مضت ذاكرته التي لا تعرف الكلل تدرس المدينة ، الوادي ، والمنطقة بأسرها ، كان يعرفها حق المعرفة ، يعرف الطرقات والممرات الممتدة مع النهر ، القرى ، الضياع ، المزارع . كان يعرف أين يمكنه أن يتوقع استضافة ودودة لقضاء الليل ، كان يفكر بجد ويخطط لرحلته المقبلة ، حيث لم يعد بوسعه ان يمكث في الخشيتين ، لكنه كان يريد البقاء يوم الأحد من أجل صديقه ، إذا لم تجعل المرأة ذلك أمراً بالغ المشقة بالنسبة له .

راح يفكر في أنه ربما كان ينبغي عليه ان يحدث الدباغ عن إمرأته ، لكنه لم يكن يحب التدخل في شؤون الآخرين ، أو يشعر بالحاجة الى محاولة جعل الناس أفضل حالاً أو أكثر حكمة . كان يشعر بالأسف اذ مضت الأمور على هذا النحو ، ولم تكن مشاعره تجاه ساقية الفندق السابقة ودية على الإطلاق ، لكنه في الوقت ذاته اضطر الى الضحك حين فكر في خطب الدباغ الطنانة حول مباحج الاستقرار والزواج ، كان يلم بتلك الأمور ، فحينما يتفاخر انسان بسعادته أو فضيلته فإنها عادة ما تكونا هزيلتين ، كان الأمر ذاته ينطبق على ورع الحائك ، إن بوسعك ان تلاحظ حماقة الناس ، بإمكانك أن تسخر منهم أو

تأسف لهم ، لكن بوسعك أن تدعهم ليمضوا في طريقهم .

بتهيدة عميقة طرد هذه الأمور من ذهنه . وقف الى جوار
الجدع المنحني لشجرة كستناء عجوز على الناحية الأخرى من
الجسر ، عاد بأفكاره مرة أخرى الى رحلاته ، كان يود لو انه
جاس عبر ارجاء « الغابة السوداء » لكن الطقس كان اكثر برودة
في الجبال خلال هذا الموسم من ان يسمح بذلك ، كانت الأرض
في الغالب لا تزال تكسوها الثلوج ، يهترىء حذاؤك اذا ما
رحلت الآن وتجد الأماكن التي يمكن ان تقضي الليل فيها
متباعدة للغاية ، كلا ، لن يستقيم الأمر ، عليه ان يسير مع
الوديان وأن يلزم المدن ، كانت طاحونة ستاج على بعد أربع
ساعات من السير مع النهر هي أول محط يمكن التعويل عليه ،
ومن المؤكد انهم هناك سيضيفونه ليومين ، إن كان الطقس سيئا .

غرق في لجى أفكاره . كان قد أوشك على نسيان انه بانتظار
قادم ، حينما لاح شبح ضئيل خائف على الجسر المعتم الذي
تكتسحه الرياح ، أسرع يعدو سعيداً وممتناً ليقابلها وهو يؤرجح
قبعة .

— « بربيلي . . . كم هو جميل منك المجيء ، أوشكت ان
أكف عن انتظارك » .

سار الى يسارها ومضى بها صعوداً مع النهر ، كان الحياء
والخجل يغلبان عليها ، راحت تردد :

— « كان ينبغي حقاً ألا أحضر ، لو ان احداً لا يرانا ! » .

لكن جعبة نولب كانت حافلة بشتى الأسئلة ، وسرعان ما تأنت خطواتها وركنت الى الانتظام . بعد قليل راحت تثرثر معه ، كما لو كان صديقاً قديماً ، شجعتها أسئلته وتعقيباته ، فحدثته عن قريرتها ، أبيها وأمها ، أخيها وجدتها ، الديكة والدجاجات ، العواصف الباردة والأمراض ، الأعراس والأسواق ، راح كنزها الصغير من الخبرات يتكشف ، وكان أعظم مما افترضته هي نفسها ، وأخيراً حدثته كيف أن أبويها تعاقدوا على عملها وكيف غادرت الدار وانشت تتحدث عن عملها والدار التي تقيم بها .

كانا قد ابتعدا كثيراً عن البلدة قبل ان يخطر لها التفكير في المكان الذي يمضيان اليه ، فقد حررها الحديث من وحدة الأسبوع الطويل الكئيب ، من الاذعان لما تؤمّر به والتزام الصمت ، كان المرح قد سيطر عليها .

صاحت فجأة في دهشة : « ولكن أين نحن ، الى أين نمضي ؟ » .

— « كل شيء على ما يرام ، إننا ماضيان الى جيرتلفنجين . لقد وصلنا تقريباً » .

— « جيرتلفنجين ؟ ولم ؟ من الأفضل ان نعود ، لقد تأخرنا » .

— « متى ينبغي أن تعودى يا بربيلي ؟ » .

— « فى العاشرة ، أى فى وقت قريب ، لقد كانت جولة رائعة »

— « لا زال الوقت مبكراً على الساعة العاشرة ، سأحرص على عودتك للدار فى الموعد . لكننا لن نكون أبداً فى مثل هذا الشباب سوياً ، لذا اعتقدت بأن فى وسعنا ان نخاطر بالرقص ، أم تراك لا تحب الرقص ؟ » .

رمقته بدهشة يداخلها الشغف : « أحب الرقص ، ولكن أين ، هنا فى قلب الليل ؟

— « سنصل جيرتلفنجين خلال لحظة ، حيث تصدح الموسيقى فى نزل « الأسد » بوسعنا ان نمضى لنشارك فى رقصة واحدة ، ثم نعود الى الدار ، فنكون قد أمضينا مساء طيباً » .

وقفت بربيلي ساكنة تفكر فى الأمر .

قالت فجأة : « سيكون ذلك طريفاً ، ولكن ما الذى سيظنه الناس بنا ؟ لا أريد ان يعتقد أنى فتاة من هذا النوع ، ولا أريد ان يظن احد كذلك أننا نمضى معاً » .

فجأة ضحكت فى مرح ، وقالت : « تدرك انه لو أنى اتخذت صديقاً فيما بعد فلا ينبغي ان يكون دباغاً ، لا أريد مضايقتك لكن الدباغة مهنة قدرة » .

قال نولب في صفاء : « ربما كنت على شيء من الصواب ،
ولست أتوقع ان تقترني بي ، لكن احداً هنا لا يعرف أنني دباغ أو
انك فخورة بنفسك الى هذا الحد ، وقد غسلت يدي فاذا ما
اهتممت بالرقص معي فلك ان تعتبري ان الدعوة قد وجهت
لك ، إذا لم تهتمي فسوف نعود » .

لاح السقف المثلث الشاحب لأول منازل القرية خلال
اغصان الشجر الداكنة ، فجأة قال نولب : « أصغ » ورفع
أصبعه : تدفق صوت الموسيقى من القرية ، كان صوت
أكورديون وكمان .
- « ليكن » .

قالتها بربيلي ضاحكة ، وأسرعاً يغذان الخطو .

في نزل « الأسد » كان هناك اربعة أو خمسة أزواج من
الراقصين ، كانوا جميعاً من الشبان لا يعرفهم نولب ، بدا الجو
السائد هادئاً ورصيناً ، ولم يضايق احد الغريبين اللذين شاركوا في
الرقصة التالية ، رقصة اللاندلر والبولكا ثم حل دور الفالس ، لم
نكن بربيلي تعرف كيف يرقص الفالس ، لذا جلسا وتناولوا
بعض الجعة التي كانت تعادل على وجه الدقة موارد نولب المالية
احمرت وجنتا بربيلي من الرقص ، وتألفت عيناها وهي
ترمقه . قال نولب في التاسعة والنصف : « اعتقد ان وقت
الذهاب قد حان » .

فاجأها ذلك ، فبدت حزينة للغاية ، قالت برقة : « يا للعار ! » .

— « يمكننا ان نمكث قليلاً » .

— « لا ، على ان أعود ، كان ذلك جميلاً » .

غادراً القاعة ، عند الباب خطر أمر لبريلي ، قالت : « لم نعط الموسيقيين شيئاً » قال نولب بشيء من الحرج : « كلا ، انهم يستحقون تينز والمشكلة اني لا أملكه » على عجل أخرجت كيس نقودها من جيبها : « لم لم تقل شيئاً ، هاك ، اعطه اياهم » . اخذ قطعة النقود ، وأعطاها للموسيقيين ، ثم غادرا المكان . في الخارج اضطرا للانتظار لحظات قلائل قبل أن يتمكنوا من رؤية الطريق في الظلام الحالك ، كانت الريح تهب بضراوة ، فتدفع امامها قطرات من المطر ، بين الحين والآخر .

تساءل نولب : « أيجب ان نستخدم المظلة ؟ » .

« لا ، والا فلن نتقدم في مواجهة هذه الريح ، كان الطقس جميلاً هناك في الداخل وكان رقصك بديعاً أيها الدباغ » .

راحت تثرثر بمرح ، فيما التزم صديقها الصمت ، ربما لأن الارهاق نال منه ، وربما لأنه كان يخشى لحظة الفراق الوشيكة .

شرعت فجأة في الغناء : « الى جوار نهر النيكر أمضي بالقطيع ، وعلى ضفاف الراين » . كان صوتها دافئاً صافياً . في

المقطوعة الثانية شارك نولب في الغناء مردداً المقطع الجهير بثقة
وفي صوت عميق عذب جعلها تصغي بسعادة الى غناؤه .

تساءل في النهاية : « طيب ، هل تبددت وحشتك ؟ » .

قالت ؛ وهي تطلق ضحكة متألفة : « أوه ، نعم ، ينبغي
ان نقوم بجولة اخرى قريباً » قال بمزيد من النعومة : « اخشى ان
هذه الجولة هي الأخيرة » .

تجمدت في موضعها ، لم تسمع انكلمات تماماً ، لكنها
التقطت نغمة الاكتئاب في صوته .

— « لكن ما الذي دهاك ، وهل ضايقتك ؟ » .

قالتها والرجفة توشي صوتها .

— « بالطبع لا ، يابربيلي ، لكن عليّ ان اغادر المدينة ، وقد
قدمت إخطاراً بذلك » .

— « أنت لا تعني ذلك حقاً ؟ يؤسفني سماع ذلك » .

— « لا ينبغي ان تشعري بالأسف من أجلي ، ما كنت
لأبقى هنا طويلاً على أية حال ، اضافة الى ذلك فأنا لا أعدو ان
أكون دباغاً ، وعليك ان تجدي حبيباً في القريب ، شاباً وسيماً ،
وعندئذ لن تشعري بالوحشة مرة أخرى ، وسوف ترين ذلك
بنفسك » .

— « لا تتحدث على هذا النحو ، فأنت تعلم أنني أشعر بالود

نحوك كثيراً ، رغم انك لست حبيبي .

لفهما الصمت معاً ، راحت الريح تصفر حول وجهيهما ،
إثاقلت خطى نولب ، كانا قد بلغا الجسر تقريباً ، اخيراً توقف .

— « الآن وداعاً ، من الأفضل أن تمضي باقي الطريق
وحدك » .

بأسي صادق تطلعت بريلي الى محياه .

— « الأمر صحيح اذن ؟ دعني اشكرك لن أنسى أبداً هذا
المساء ، فليحالفك التوفيق » ، امسك بها ، جذبها اليه ،
فوجئت ، وراودها خوف غامض ، حدقت في عينيه ، إحتوى
رأسها بجذائلها التي نداها المطربين يديه كليهما ، وهمس :
« وداعاً ، يا بريلي ، ولكن قبل أن أمضي أود أن أقبلك حتى لا
تساني ذاكرتك تماماً » .

إرتعدت ، انكمشت قليلا ، لكن عينيه كانتا رقيقتين ،
حزينتين ، لاحظت الآن للمرة الأولى كم هما جميلتان ، تقبلت
قبلته من دون ان تغمض عينيهما ، ثم حينما وقف متردداً وابتسامة
واهنة على شفثيه انسابت الدموع من عينيهما فردت قبلته بحرارة ،
سارعت بالابتعاد ، كانت قد وصلت بالفعل الى الجسر حينما
التفتت فجأة وعادت مرة اخرى الى حيث كان لا يزال واقفاً في
البقعة ذاتها .

تساءل : « ما الأمر يا بربيلي ؟ عليك ان تعودى الى لدار » .

– « أوه نعم ، أنا ذاهبة ، ينبغي الا تسيء الظن بي » .

– « بالتأكيد ، لا » .

– « لكن خبرني أيها الدباغ ، قلت انك لا تملك نقوداً ، ان يدفع لك اجر قبل الرحيل » .

– « كلا ، لن ألتقى اجوراً ، لكن هذا لا يهم ، سأدبر امرى ، ينبغي ألا تقلقى » .

– « كلا ، كلا ، ينبغي ان يكون فى جييك بعض المال ، هاك »

دفعت بقطعة معدنية كبيرة القيمة فى يده . عرف من الملمس أنها تالر .

– « بوسعك ان ترده الى أو ترسله يوما ما » .

أمسك بيدها : « لن يصير ذلك ، لا ينبغي ان تبدي نقودك على هذا النحو ، انه تالر بأكمله ، خذيه ، اصر على ذلك ، لو كانت لديك قطع صغيرة من العملة ، لنقل خمسين فيننج ، سأخذها بسرور لأنى مفلس ، لا مزيد على ذلك » .

راحا يتجادلان قليلاً ، اضطرت بربيلي أن تريه كيس نقودها لأنها قالت بأن ليس لديها إلا التالر ، لكن ذلك لم يكرز

صحيحاً ، كان هناك مارك واحدى القطع ذات العشرين فينيج
لا تزال متداولة ، أراد ان يأخذ تلك القطعة لكنها قالت انها
ليست كافية ، فقال انه لن يأخذ شيئاً ، ولكن في النهاية احتفظ
بالمارك ، واندفعت بربيلي راحلة .

في طريقها الى الدار تساءلت لم لم يقبلها مرة اخرى ، تارة
بشعور من الندم ، وتارة أخرى باحساس بأنه كان رقيقاً حين لم
يعاود تقبيلها ، وانه كان كيساً عذب الروح ، وكان هذا هو
الشعور الذي خلدت اليه في النهاية .

انقضى ما يزيد على الساعة قبل ان يعود نولب الى الدار ،
شاهد الضوء لا يزال متوهجاً في الغرفة الكبيرة الامر الذي يعني
ان زوجة الدباغ جالسة في انتظاره ، بصق في ضيق ، وفكر في
الهرب الى قلب الليل في هذه اللحظة عينها ، لكن الارهاق كان
قد نال منه ، وأوشك المطر ان ينهمر مدراراً . ولم يكن يرغب في
ان يجحد فضل الدباغ ، أضف الى ذلك انه شعر برغبة في القيام
بمزهجة صغيرة لا تؤذي احد .

التقط المفتاح من مكمته ، فتح باب الدار خلصة كلص ،
أغلقه وأحكم رتاجه دون صوت وقد زم شفثيه ، بعناية وضع
المفتاح مكانه ، خلع نعليه ثم صعد الدرج بقدميه اللتين
يكسوهما جورباه ، كان باب الغرفة الكبيرة موارباً ، شاهد
الضوء من خلال فرجة الباب ، وسمع زوجة الدباغ التي راحت

تغط في النوم من طول الانتظار وتنفسها العميق يصدر من
الأريكة ، صعد صامتا الى غرفته ، أغلقها على نفسه وورقد في
الفراش ، لكنه عقد العزم على الرحيل في الغد .

Handwritten text, likely bleed-through from the reverse side of the page. The text is mostly illegible due to fading and blurring.

تذكاراتي عن

نوب

في تلك الأيام الخوالي كنت شاباً منطلقاً، وكان نوب لا يزال يتدفق حياة. كنا في منتصف الصيف ، مضينا كلانا نتجول عبر انحاء الريف الخصب ، دون ان تثقل كاهلنا الهموم ، كنا في النهار نضرب في حقول الحنطة الذهبية او نرقد في الظل الندي لشجرة جوز عند لحافة الغابة ، في الليل كنت أصغي محمداً في نوب بينما يقص الروايات على الفلاحين أو يقدم عروضاً لخيال الظل للأطفال او ينشد الفتيات أغنيات ، كنت أصغي في سرور دون ان يخالجنني الحسد ، حين يقف وقد تحلقت حوله الفتيات ووجهه الذي لوحته الشمس يومض كبرق الصيف فيعجزن في غمار ضحكهن وفكاهتهن عن تحويل ابصارهن عنه ، حينذاك فحسب ، كان يخطر ببالي عرضا انه شيطان محظوظ على نحو قد

أو انني ذاتي أمثل العكس تماماً ، فأضيق ذرعاً بالجلوس هناك
كأني نتوء في جذع شجرة ، في بعض الأحيان كنت أتسلل وحيداً
فأمر بخوري القرية لتبادل حديثاً جاداً ولأقضي الليلة في داره أو
أمضي الى مشرب احتسي فيه قدحاً من النبيذ في سكينة وادعة .

أذكر أننا كنا ذات أصيل نشق طريقنا عبر الحقول بعيداً عن
أقرب القرى إلينا حينما مررنا بمقبرة مجهولة الى جوارها كنيسة
صغيرة ، كانت تحيطها أسوار تتكاثف بإزائها شجيرات داكنة
الخضرة ، وقد وادعه إنتصبت أمانة في رحاب الضيف الحارة .
كانت هناك شجرتا كستناء عند المدخل ، ألفينا البوابة موصدة ،
كنت أرغب في مواصلة المسيرة ، لكن نولب لم يكن يشاركني هذه
الرغبة ، فشرع في تسلق السور . تساءلت : « أنتوقف مرة
أخرى ؟ » .

— « أعتقد ذلك ، فلست أرغب في أن تلتهب قدماي » .

— « أمن الضروري أن نتوقف عند مقبرة ؟ » .

— « لا عليك ، هلم بنا ، أعلم أن الفلاحين لا يأبهون
كثيراً بالمسرات ، لكن حينما يتعلق الأمر بمشواهم الأخير فإنهم
يؤثرون الراحة التامة . الأمر في نظرهم يستحق العناء ، فتراهم
يغرسون أجمل الزهور والنباتات عند مقابرهم وفيما حولها » .

شاركته تسلق السور المنخفض ، فأدركت انه كان على

صواب ، امتدت المقابر التي كان معظمها تعلوه صلبان خشبية
بيضاء في صفوف ممتدة ومتعرجة ، نمت فوقها الزهور والخضرة
تألفت هناك شجيرات مثقلة بالورد وغيضة كثيفة من البليج
والبيلسان .

رحنا نجوس بأبصارنا برهة ، اقتعدنا النخيل الذي كان
مستطيلاً ومزدهراً في بعض البقاع ، نلنا قسطاً من الراحة ،
وجف عرقنا ، فغمرنا شعور بالرضا .

قرأ نولب الاسم المنقوش على أقرب صليب ، قال : « كان
اسمه انجلبرت أويره ، عاش حتى تجاوز الستين ، لكنه الآن
يرقد تحت البليحا العطرية ، وهي زهرة بديعة ، انه يرقد في
سلام ، يسعدني ان يكون لدى بعض من هذه الزهور حين يحل
الوقت اما الآن فلعلي أقطف زهرة صغيرة من هذه » .

قلت : « من الأفضل ان تقطف شيئاً آخر فهذه الزهور
تذبل سريعاً » .

غير أنه نزع عوسجا وغرسه في قبعته التي كانت الى جواره
فوق النخيل .

قلت : « كم هو بديع هذا الهواء ! » .

قال : « نعم ، لو أن المقبرة كانت أهذا قليلاً لسمعناهم
يتحدثون هناك بأسفل » .

– « ليسوا هم الذين يتحدثون ، لقد انتهوا من حديثهم » .

– « أنى لنا ان نعلم ؟ يقولون ان الموت رقاد ، الا نتحدث بين الفينة والأخرى خلال رقادنا ؟ بل اننا في بعض الأحيان نغني » .

– « ربما تفعل أنت ذلك » .

– « لم لا ، لو انني كنت ميتا ، لانتظرت حتى يوم الأحد حين تقبل الفتيات الى هنا فيلقين نظرة ويقتطفن الزهور من المقابر ولشرعت في الغناء ولكن برقة بالغة » .

– « ماذا ستغني ؟ » .

– « ماذا سأغني ؟ أوه ، أي أغنية عتيقة » .

تمدد على الأرض ، أغمض عيني ، سرعان ما شرع الغناء بصوت طفولي ناعم :

« لأنني رحلت في شرح الشباب ،
أقبلن وغنين لي أيتها العذارى الحسان ...
أغنية وداع ،
حين أقبل من جديد ،
حين أقبل من جديد ،
سأكون فتى جميلاً » .

لم أتمالك أن انفجرت ضاحكاً على الرغم من اني احببت
الأغنية ، شدا بصوت جميل ، إن لم تكن الكلمات بذات معنى
دائماً فإن اللحن كان بديعاً ، كان ذلك كافياً .

قلت : « نولب ، لا تبالغ في تقديم الوعود للعداري
الحسان والا فسيثقفن عن الاصغاء لك . جميل ان تقول بأنك
ستقبل من جديد ، لكنه ما من احد يلم بهذه الامور حقاً ،
وكيف يسعك ان تكون على يقين من انك ستغدو فتى جميلاً ؟ »

— « لا ، ليس بمقدوري التيقن ، ذلك حقيقي ، ولكن
هذا هو ما أود أن أكون ، اتذكر في ذلك اليوم الفتى الصغير ذا
البقرة الذي سألناه عن الطريق ؟ أود لو أكون مثله حينما أقبل
عائداً ، الا تود ذلك ؟ » .

— « كلا ، لا أود ذلك ، عرفت ذات يوم شيخاً تجاوز
السبعين ، كانت عيناه ساجيتين تماماً ورققتين ، بدا لي ان كل
شيء يحيط به رقيق وحكيم وهادىء ومنذ ذلك الحين رحت أفكر
في انني إذا ما أقبلت عائداً فإنني أرغب في أن أكون مثله » .

— « طيب ، أمامك ، طريق طويل يتعين ان تقطعه ،
إجمالاً هناك شيء مضحك فيما يتعلق بالأمنيات ، إذا كان كل ما
عليّ لأصبح فتى جميلاً على هذا النحو هو الايماء برأسي وكل ما
عليك هو الايماء لتصبح عجوزاً رقيقاً فإن أياً منا لن يومىء
برأسه ، سيسعدنا أن نبقي على ما نحن عليه » .

– « نعم ، هذا صحيح » .

– « صحيح ، ليكن ، ولكن ذلك ليس كل ما في الأمر . في بعض الأحيان احدث نفسي ان اجمل شيء في العالم هو فتاة رشيقة شقراء ، لكن ذلك هراء لأننا غالباً ما نرى سمراء تلوح لنا أكثر جمالاً على وجه التقريب ، أضف الى ذلك ان هناك احياناً اخرى اعتقد فيها ان اجمل الأشياء هو طائر يحلق طليقاً في السماء ، في مرة اخرى لا يبدو لي شيء عجبياً كما تلوح فراشة بيضاء على سبيل المثال ذات نقاط حمراء ترقش جناحيها أو الشمس وهي تلتمع في السحاب عند الغسق حينما يتوهج كل شيء لكن النور لا يبهز ابصارنا ، ويبدو كل شيء بهيجا وبريئاً » .

– « أنت على حق ، يانولب فكل شيء يبدو جميلاً حينما تتطلع اليه في لحظة طيبة » .

– « نعم ، لكن هناك المزيد ، أعتقد أن أجمل الأشياء تمنحنا شيئاً آخر الى جانب السرور انها تخلف فينا كذلك شعوراً بالحزن والخوف » .

– « لماذا ؟ » .

– « أعني ان الفتاة الجميلة ما كانت لتبدو بمثل هذا الجمال لو اننا لم نكن نعلم أن لها عمراً تتألق فيه وانها حينما ينقضي ذلك

العمر ستشيخ وتنفى ، ولو أن شيئاً جميلاً كان من شأنه ان يظل على جماله للأبد اذن فسيسعدني ذلك ، لكن ، ذلك ، لكني ، على أية حال سأطلع اليه بعينين أكثر بروداً ، سأحدث نفسي قائلاً ، ان بوسعك النظر اليه في أي وقت ولا يتعين ان يكون ذلك اليوم ، لكني حين أعلم ان شيئاً ما قابل للفناء ولا يمكن ان يدوم للأبد فاني لا أنظر اليه بشعور البهجة فحسب وانما التعاطف كذلك » .

— « افترض هذا » .

— « ليس هناك شيء اجمل بالنسبة لي من الألعاب النارية في الليل ، هناك كرات نارية زرقاء وخضراء ، انها تنطلق عالية في الظلمة وفي سمت حسننا تلتف ، تتبدد ، حينما تراقبها تشعر بأنك سعيد ، لكنك خائف في الوقت ذاته لأنها في لحظة ستنتهي ، معاً تمضي السعادة والخوف ، أنها تبدو اجمل كثيراً مما لودامت وقتاً أطول ، الا تحس بالشيء ذاته ؟ » .

— « أجل ، أعتقد انني أحس به ، لكن ذلك لا ينصرف الى كل شيء » . .

— « لم لا ؟ »

— « على سبيل المثال ، اذا كان فتى وفتاة يحب احدهما الآخر وتزوجا او اذا تصادق شخصان يغدو ذلك أمراً جميلاً لأنه قصد به ان يدوم والا ينتهي عاجلاً » .

رمقني نولب عن كذب ، رفت اهدابه السوداء ، قال
بشروء : « نعم ، لكن ذلك ينتهي أيضاً ، شأن كل شيء آخر ،
ثمة أشياء عديدة يمكن ان تحطم الصداقة والحب » .

– « صحيح ، لكننا لا نفكر في ذلك الى ان يحدث » .

– « لست واثقاً من ذلك ، على سبيل المثال ، احببت مرتين
في عمري ، حبا صادقا أعني ، وفي كل مرة كنت اعلم ان الحب
سيدوم الى الأبد وانه يمكن ان ينتهي بالموت فحسب لكن الحب
انتهى في كل مرة ولم امت . لي صديق كذلك في بلدي ، كنت
اعتقد أننا لن نفترق أبداً ، لكننا افترقنا منذ زمان بعيد ،
بعيد » .

غرق في الصمت ، لم أستطع التفكير في شيء أقوله ، كنت
بعد لم اجرب الأسى الذي هو جزء لا يتجزأ من كل علاقة
انسانية ، لم أكن قد تعلمت بعد انه مهما كانت الصلة وثيقة فلا بد
من لحظات تباعد بين الفينة والفينة ، رحت أتأمل كلمات
صديقي ، حظي بحبي على نحو اكبر ما قاله عن كرات النار لأن
الشعور ذاته غالباً ما كان يخالجي ، الانبثاق الهاديء للهب الملون
اذ يرتفع في قلب الظلمة وسرعان ما يغرق فيها ، بدا لي ذلك رمزاً
لكل المتع البشرية ، فكلما كانت بديعة تضاءل اشباعها لنا وحم
قضاؤها . حدثت نولب بما كنت أفكر فيه .

لكنه لم ينطلق في اتجاه الحوار ذاك قال فحسب :

« نعم . . . نعم » ، بعد برهة طويلة ، بصوت كظيم أضاف :
« لا معنى لكل هذا التفكير والتأمل ، اننا لا نقوم بأداء ما نفكر
فيه أبداً ، لا نتوقف لنفكر ، وانما نفعل ما تأمر به قلوبنا ، لكن
ربما كان هناك بعض الصواب فيما حدثتكَ به عن الصداقة
والحب ، في النهاية تبقى لكل منا حياة خاصة لا يشارك أحد
فيها ، بوسعك أن تدرك أنه حينما يموت صديق أو حبيب فانك
تبكي وتحزن ليوم أو لشهر أو حتى لعام لكن الراحل الأثير يموت
ويعضي حينئذ وسواء أن يكون الراقد في مثواه مجرد فتى شريد
مجهول الهوية او غير ذلك » .

— « لا تقل ذلك ، يا نولب ، فلست احب سماعه ، لقد
تحدثنا غالباً عن هذه الأمور ، وقلنا دائماً ان الحياة ينبغي ان
يكون لها معنى وان هناك جدوى في أن يكون المرء طيباً ودوداً ، في
أن يكون سيئاً وشرساً ، ولكن وفق النحو الذي نتحدث به الآن
فلا فارق هناك ويمكننا على حد سواء ان نغدو لصوصاً وقتلة » .

— « لا يا صديقي ، ليس بمقدورنا ذلك ، تأمل ان كان
بوسعك ان تجبر نفسك على قتل الأشخاص القلائل المقبلين
الذين سنلتقي بهم او ان تحدث الفراشة الصفراء بأنها كان ينبغي
ان تكون زرقاء ، لسوف تسخر منك » .

— « ليس ذلك ما عنيته ، ولكن اذا ما كان الأمر عبثاً ،
فليس هناك معنى لمحاولة المرء ان يكون طيباً ومستقيماً ، ليس

هناك خير طالما ان الازرق طيب كالأصفر والشر طيب كالخير ،
حينئذ فان الانسان يغدو كالحیوان في الغابات ، يتبع ببساطة
طبيعته فلا تعود هناك فضيلة او رذيلة .

تنهد نولب ، قال :

— « ماذا بوسعي أن أقول ؟ ربما كنت على صواب ، وذلك
هو السبب في نوبات الكآبة الغبية تلك التي تعترينا ، لأننا نشعر
بأن توقنا وكدحنا مجردان من المعنى وأن الأمور تمضي ببساطة في
مجراها ، لكن هناك شعوراً بالذنب رغم ذلك حتى حين لا يكون
بوسع الانسان مقاومة ان يكون سيئاً ، لأنه يعي السوء الكامن
في نفسه ، وذلك هو السبب في ان الخير يتعين ان يكون الطريق
الصحيح لأننا حين نجتري الخير تغمرنا السعادة ويصفو ضميرنا .
كان بوسعي ان ادرك من تعبيرات وجهه انه ضاق ذرعاً بهذه
المناقشة ، وغالباً ما كان يعتريه هذا الشعور ، يشرع في التفلسف ،
يقرر المبادئ يجادل مهاجماً ومدافعاً ثم يتوقف فجأة . في البداية ،
اعتقدت انه ضاق باجاباتي واعتراضاتي الخرقاء ، لكن الأمر لم يكن
كذلك ، كان يشعر بأن ميله الى التأمل يمضي به الى أرض لا
تناسب معرفته ووسائله في التعبير مع الضرب في
مناهاتها ، فعلى الرغم من انه طالع الكثير ، وقرأ تولستوي على
سبيل المثال ، فانه لم يكن بمقدوره دائماً التمييز بين الطرح
الصائب والخطيء وكان يلجأ الى احساسه بالقدر ذاته ، كان
يتحدث عن المثقفين كما يتحدث طفل موهوب عن الكبار ، كان

عليه ان يقر بأنهم أقوى وأفضل عدة منه ، لكنه كان يزدرهم
لعدم استفادتهم على الوجه الصحيح من معرفتهم ولعدم قيامهم
بحل أي احجية باستخدام حكمتهم » .

رقد على ظهره الآن ، أسند رأسه الى ذراعيه ، راح يحدق
عبر اوراق الشجر القائمة في السماء الزرقاء الملتهبة ويغني بنغومة
اغنية شعبية من وادي الراين ، مازلت اذكر المطلع الأخير
منها :

ارتديت حتى الآن المعطف الأحمر ،
وعلى الآن ان ارتدي المعطف الأسود ،
سبعة اعوام لا تنقص يوماً ،
الى ان ينقضي حبي

جلسنا عند الغسق احدهنا قبل الآخر عند الحافة المعتمة ،
مع كل منا بعض الخبز والسجق المجفف ، رحنا نتناول
الطعام، ونشهد الليل مقبلاً ، منذ وقت قليل فحسب كانت
التلال تلتهم بوهج السماء التي يزحف عليها الغروب وتستحم في
السديم الناعم المضيء الخواف ، أما الآن فقد اعتمدت وبدأت
ملاعنها الخارجية حادة وقد ألقت بألوان اشجارها وشجيراتنا
ومنحدراتنا على السماء التي كانت ما تزال تلملم بعض الضوء
الازرق الشاحب وان غلبت عليه زرقة الليل المعتمة .

حينما كان الضوء كافياً طالع احدهنا للآخر بعض الأغنيات

من كتيب صغير زائنه صور للوحات محفورة في الخشب ، انتهى ذلك مع رحيل الضوء ، حينما فرغنا من الطعام رغب نولب في سماع بعض الموسيقى ، انتزعت الهارمونيكا من جيبي الذي كان مليئاً بفتات الخبز ، قمت بمسحها وعزفت ألحان اغنياتنا القليلة المعتادة ، ضربت الظلمة باجنحتها عبر انحاء الريف الممتد ، فقدت السماء وهجها الشاحب وفيما الظلمة تقبل راحت الأنجم تنبثق واحدة اثر الأخرى ، حلقات نغمات الهارمونيكا الرهيفة المتماوجة عبر الحقول ، وانداحت الى بعيد . قلت لنولب : « مازال الوقت مبكرا بالنسبة لموعد الرقاد ، فارولي قصة ، لا يتعين ان تكون حقيقية او خرافية » .

فكر نولب برهة ، قال : « ليكن ، قصة وحكاية خرافية معا ، بوسعك أن تدرك أنها حلم ، راودني هذا الحلم في الخريف الماضي ثم عاودني مرتين منذ ذلك الحين ، دائماً على النحو ذاته ، واليك به :

شارع ضيق في بلدة صغيرة كتلك التي قدمت منها ، لكل الدور نوافذ تطل على الشارع لكنها أكثر ارتفاعاً من النوافذ التي تراها عادة ، كنت أمضي عبر الطريق ، بدا الأمر كما لو كنت عائداً الى موطني بعد وقت طويل ، لكنني لم أكن سعيداً حقاً ، كان هناك أمر ما لا يسير وفق ما ينبغي ، راودني شعور بأنني ربما لم أكن في المكان الصحيح ، وان هذه البلدة ليست ببلدي على

الاطلاق وكانت بعض الأجزاء على ما ينبغي أن تكون تماماً وتعرفتها في الحال لكن دوراً عديدة كانت غريبة ومهجورة ، لم استطع العثور على الجسر المؤدي الى السوق مررت بدلا منه بحديقة غير مألوفة وكنيسة بدت لي كما لو كانت في كولونيا او بازل ، لها برجان كبيران ، ولم يكن لكنيستنا ابراج على الاطلاق وانما جذع شجرة منخفض له سقف متنقل لأن البنائين أخطأوا ولم يتمكنوا من اكمال البرج .

كان الأمر على النحو ذاته مع الناس ، تعرفت البعض ممن رأيتهم على مبعدة ، عرفت اسماءهم ، كانت على شفتي وأوشكت ان أناديهم ، لكن معظمهم مضوا الى الدور أو الى شوارع جانبية واختفوا ، حينما اقترب أحدهم تحول الى غريب ، حينما مر بي وتعقبته بنظراتي بدا لي أنه في النهاية الرجل الذي ظننت وأني يقينا أعرفه ، شاهدت جماعة من النسوة يقفن خارج حانوت ، اعتقدت ان احداهن عمتي التي ماتت ، لكنني حين مضيت اليها لم أجد أعرفها وكن يتحدثن لهجة غريبة لم استطع فهمها .

في النهاية حدثت نفسي : أوه ، لو كان بوسعي فحسب أن أمضي بعيداً عن هنا ، انها حينما تبدو بلدتي القديمة وحيناً آخر لا تبدو كذلك ، لكنني طوال الوقت ما أفتأ أشاهد داراً مألوفة أو وجهاً أعرفه وحينما اندفع اليه يخيب ظني في كل مرة ، لكنني لم

أغضب ولم يعترني الضيق ، انما أنا حزين وخائف ، أردت ان
أردد صلاة ، حاولت جاهداً ان اتذكر ، لكن ما وسعني التفكير
فيه كان عبارات سخيفة من قبيل سيدي العزيز وفي اطار هذه
الظروف . في حزني وارتباكي مضيت أغمغم بهذه العبارات . بدا
لي أن ذلك قد استمر عدة ساعات الى أن أصابني الدوار
والاعياء ، مع ذلك رحت أضرب متعثراً من مكان الى مكان ،
في ذلك الوقت كان المساء قد حل فقررت أن أسأل أول شخص
أقابله أين يمكنني أن أقضي الليل او كيف أعثر على الطريق
المؤدي الى خارج المدينة ، لكنني لم أستطع ان احادث أحداً ،
كانوا جميعاً يمرون بي كما لو لم اكن موجوداً ، بلغت من الأعياء
والياس حد أنني اعتقدت بأني سأنفجر باكياً .

فجأة درت حول منحنى فألقيت نفسي . في شارعنا العتيق ،
كان قد تغير ، بدا بعيداً عن الواقع ومرتباً ، لكن ذلك لم يثر
ضيقي كثيراً ، سرت عبر الشارع ، رحت اتعرف الدور دارا
بعد الأخرى بالرغم من تهاويل الحلم ، أخيراً وصلت الى الدار
العتيقة التي نشأت بها ، كانت شأن الدور الأخرى سامقة على
نحو غير طبيعي لكنها فيما عدا ذلك بدت جميلة كما في الأيام
الخوالي ، اعترتني رعدة لفراط الفرحة والانفعال .

عند عتبة الدار وقفت حبيبتى الأولى ، كان اسمها هنريت ،
إلا أنها كانت أطول وأكثر اختلافاً عما عهدتها وأبهى جمالا ، وفيما

أخذت في الاقتراب ادركت ان ثمة أمر عجائبياً وملائكياً يحيط
بجمالها ، لكنني لاحظت كذلك ان شعرها أشقر وليس كستنائياً
كشعر هنريت ، مع ذلك كانت هي هنريت من قمة رأسها حتى
أخص قدميها وان قوامها مختلفاً .

— هنريت !

صحت منادياً ، انتزعت قبعتي ، لأنها بدت أثيرة للغاية
بحيث لم اكن على يقين من انها ستعرفني .

التفت وحدقت في عيني ، وبينما هي تحقق فيها ، ذهلت ،
أحسست بالخلجل لأنها لم تكن هنريت وانما اليزابيث حبيبتي
الثانية التي أقمت معها أعواماً .

هتفت : اليزابيث ! مددت يدي نحوها .

نظرت إلى . اخترقت نظراتها فؤادي كما لو كان الرب قد تطلع
إلى ، لم تكن نظرة قاسية او متعالية وانما صافية وهادئة ، روحانية
وشاخحة الى حد أنني شعرت كأني جرو ، فيما هي تنظر إلى كساها
الجد والحزن . هزت رأسها كما لو كانت قد طرحت سؤالاً لا يليق
لم تأخذ بيدي وانما عادت الى الدار وأغلقت الباب خلفها ، كان
بوسعي ان أسمعه وهو يصفق .

أشحت بناظري ، مضيت في طريقي ، على الرغم من أن
الدموع والأحزان أوشكت أن تعمي ناظري فقد رأيت ان

المدينة تغيرت على نحو غريب ، بدت كل الشوارع وكافة الدور
الآن على نحو ما كانت في الأيام الخوالي تماما ، كانت الرقية
الشريرة قد تحطمت ، لم تعد النوافذ مرتفعة للغاية بعد ، وغدت
الألوان في موضعها الصحيح ، عاد الناس الى ذواتهم مرة
اخرى ، راحوا يتطلعون إلى بدهشة تمازجها السعادة كما لو كانوا
يعرفوني ، ناداني البعض باسمي لكنني لم استطع الرد ولم اتمكن
من الوقوف لمحدثتهم ، شيء ما دفعني للسير عبر الجسر القديم
المألوف الى خارج المدينة ، كان الألم يعتصر فؤادي فغللت
الدموع كل ما اراه بدا لي أنني قد فقدت كل ما كان لي في المدينة
واني ألوذ بالهرب وقد غمرني العار ، ولم أدر السبب في ذلك .

تحت أشجار الصفصاف عند حافة المدينة توقفت لألتقط
أنفاسي ، عندئذ فحسب خطر ببالي أنني كنت أمام دارنا القديمة
مباشرة واني لم أفكر في أمي وأبي وأخوتي وأخواتي وأصدقائي ،
أبداً لم يحفل قلبي بمثل هذا الاضطراب ، الحزن ، والعار ،
لكنني لم أستطع ان انقلب عائداً لاستدراك ما فات فقد انتهى
الحلم واستيقظت من نومي » .

قال نولب : « لكل انسان روح ، لا يسعه ان يمزجها بأي
روح اخرى ، يمكن ان يلتقي اثنان ، بوسعهما أن يتجاذبا
أطراف الحديث ، بإمكانهما ان يتقاربا ، لكن روجيهما تظلان
كزهرتين ، كل منهما تمتد جذورها في موضعها ، لا تستطيع
احدهما ان تمضي الى الأخرى ، لأنه يتعين عليها ان تنأى عن

جذورها، وهو ما لا تستطيع اجتراحه. ان الزهور تفوح بأريجها وتنثر حبوب لقاحها لأنها تود لو تمضي احداها نحو الأخرى ، لكن الزهرة لا تملك القيام بشيء يضع الحبة في موضعها الصحيح ، ان الريح هي التي تقوم بذلك ، والريح تقبل وتمضي كما يحلو لها .

بعد هنية أضاف : « ربما كان ذلك هو ما يعنيه الحلم الذي حدثتك به ، لم أخطيء عامداً في تعرف هنريت أو اليزابيث ، ولأنني احبتهما كليهما ذات يوم وأردت جعلهما ملكا خالصاً لي أصبحنا بالنسبة لي نوعاً من شخوص الحلم. بداشبيها بهما وان لم يمثل أي منهما ، أن هذا الشبح ينتمي الي ، لكن الحياة لم تعد تدب فيه ، وغالباً ما راودتني هذه الأفكار عيناها عن والدي ، انهما يعتقدان أنني طفلهما واني أمائلهما ولكن على الرغم من حبي لهما فاني غريب عنهما ليس بوسعهما فهمه ، والجانب الأساسي مني الذي قد يكون روحي بالفعل لا أهمية له ويرجعانه الى طيش أو الى سوء الطبع ، رغم ذلك فانهما يجبانني وسيقومان بأي شيء في هذا العالم من اجلي ، يمكن للأب ان يورث ابنه انفه وعينه بل وذكاؤه ، ولكنه لا يورثه روحه ، فالروح شيء جديد في كل كائن بشري . »

لم يكن لديّ ما أعقب به على ذلك ، ففي ذلك الوقت لم اكن قد شرعت بعد في التفكير وفق هذه التصورات او على الأقل لم اكن قد شعرت بحاجة عميقة لذلك ، لم تكن مثل هذه

الخواطر تثير استيائي على الاطلاق، لم تكن تمس قلبي من ثم
تخيلت انها بالنسبة لنولب كذلك لا تعدو ان تكون لهوآلاً
نضالاً ، أضف الى ذلك انه كان امراً بديعاً يبعث شعوراً عذباً
بالسلام أن نرقد جنباً الى جنب فوق النخيل الجاف في مقدم
الليل والكرى ونحن نراقب اولى النجيمات بزوغاً قلت :
« أنت مفكر ، يا نولب ، كان ينبغي ان تكون أستاذاً
بالجامعة » .

ضحك ، هز رأسه ، قال بشرود : « أوتر على ذلك
الانضمام يوماً الى جيش الخلاص » . كان ذلك امراً مبالغاً فيه
قلت : « لا أصدقك في المرة القادمة ستحدثني بأنك ترغب في ان
تكون قديساً » .

— « ذلك هو ما أوده ، فكل من يشعر بالتوق حقاً لما يفكر
فيه ويقوم به فهو قديس ، واذا ما اعتقد ان شيئاً ما صحيح يتعين
ان يقوم به ، واذا ما اعتقدت يوماً انه من الصواب بالنسبة لي
الانضمام الى جيش الخلاص ، فاني آمل أن أقوم بذلك » .
— « ولم جيش الخلاص ؟ » .

— سأحدثك بالسبب ، لقد ناقشت الكثيرين وأصغيت الى
أحاديث عديدة ، سمعت القسس ، المدرسين ، العمدة ،
الديمقراطيين الاشتراكيين ، والليبراليين لكنني شعرت في اعماقي ان
أيا منهم لا يأخذ ما يقول مأخوذ الجذ ، لم يجعلني أحدهم أشعر

بأنه اذا ما اقتضت الضرورة فإنه سيضحى بنفسه من اجل حكمته ، لكنني رأيت وسمعت في جيش الخلاص بكل موسيقاته وتراتيله اثنين او ثلاثة يتوقون لذلك حقاً .

— « وأنى لك ان تعرف ؟ » .

« — لا عليك ، بوسعك ان تعرف ، أذكر واحد منهم كان يلقي خطاباً في ميدان بإحدى القرى ذات يوم واحد ، مع الحرارة والغبار فقد صوته ، لم يكن يبدو بالغ القوة حينما لم يستطع التلفظ بكلمة اخرى ، ترك رفاقه الثلاثة يرتلون مقطوعة من ترتيله ، تجرع قليلاً من الماء كان نصف أبناء القرية يتحلقونه أطفالاً وكباراً ، راحوا يسخرون منه ويمطرونه بالأسئلة كان يقف خلفه أحد المزارعين ومعه سوط راح يسوط الهواء به بين الحين والحين - كراك ليخيف المتحدث . أغرق الجميع في الضحك ، لكن الرجل اليائس لم يعتره الغضب رغم أنه لم يكن بالأحمق ، كافح مجدداً ضد الهرج والمرج بصوته الواهن ، ابتسم حيث كان يمكن أن يبكي الآخرون أو يصبوا اللعنات ، وكما تعلم فإن المرء لا يقوم بذلك من اجل أجر يقف به عند الكفاف او لمجرد التسلية ، لا كلا ، لا بد أن هناك قدراً هائلاً من الصفاء واليقين بداخله . »

— « ربما ، لكن الشيء ذاته لا يصدق على الجميع ، فرجل حاذق ومرهف الحس مثلك ما كان يمكن ان يحتمل كل تلك الضجة . »

— « ربما كان بوسعه ذلك ، لو كان لديه او كان يعرف شيئاً
أفضل من كل حذقه ورهافته ، أعلم ان الأمر ذاته لا يصدق على
الجميع ، لكن الحقيقة يتعين أن تصدق » .

— « أوه ، الحقيقة ، أنى لنا أن نعرف ان مرتلي الصلوات
أولئك لديهم الحقيقة ؟ »

— « معك بعض الحق في ذلك ، اننا نعرف ، وما أقوله هو
انني اذا ما وجدت الحقيقة سأتابعها » .

— « اذا ! لكنك في كل يوم تجد شطراً من الحكمة وفي اليوم
التالي تتخلي عنه » .

نظر الي في ضيق وقال : « لم يكن جميلاً منك ان تقول
ذلك » .

أردت أن أعذر ، لكنه اسكتني وغرق في الصمت ، بعد
برهة قصيرة همس في رقة بتحية المساء ورقد ، لكنني لا أعتقد أنه
اغمض عينيه عقب ذلك مباشرة . كنت مسهداً فرقدت نحو ساعة
متوسداً ذراعي ومحدقاً في الليل .

في الصباح أدركت ان هذا اليوم من أيام نولب الطيبة حدثته
بذلك ، فالتمعت عيناه الطفليتان وهو ينظر اليّ ، قال : « أحب
حدسك . أتعلم من أين يأتي يوم طيب كهذا ؟ » .

— « لا ، من أين ؟ » .

- « من النوم جيداً والحلم بأشياء جميلة ، لكنك ينبغي الا تتذكر ماذا كانت تلك الأشياء ذلك هو حالي اليوم ، لقد حلمت بأشياء بديعة ومبهجة ، لكنني نسيتها جميعاً ، أعلم فحسب انها كانت رؤيا رائعة » .

قبل ان نصل الى القرية التالية ونحتسي حليبنا الصباحي كان قد شدا بأربع اغنيات جديدة تماماً للصباح البهيج بصوته الدافئ المناسب بلا عناء ، ولو ان هذه الأغنيات كتبت ودونت لما بدت ذات قيمة كبرى ، فلم يكن نولب شاعرا عظيما ، لكنه كان شاعرا رغم كل شيء وفيما يشدو بأغنياته القصار كانت تلك الأغنيات تبدو وثيقة الشبه بأروع أغنيات العالم ، وبعض الفقرات والأبيات التي أذكرها بديعة حقاً ولا زلت احفظها عن ظهر قلب ، أبدا لم تكتب اشعاره ، لقد ولدت ، عاشت ، وماتت - مثل هبات النسيم - في براءة لا تقاوم لكنها منحت الجمال والدفء للحظات عديدة لا بالنسبة له ولي فحسب وانما بالنسبة للكثيرين من الآخرين كذلك .

في ذلك الصباح تغنى بمفاتن الشمس على نحو ما يفعل في كافة اغانيه على وجه التقريب :

كالعذراء تنهض من خدرها ،

متألقة وملتفة بأفضل أثواب الأحد ،

على استحياء ، رغم ذلك في خيلاء ،

تخطو متهاوية من منحني الجبل .

كان حديثه غالباً مثقلاً بالفلسفة ، لكن أغانيه كانت لها
خفة الطفل اذ يلهو في ملابس الصيف ، لم يكن بعضها يتجاوز
ترنيمة غنائية ولا يعدو أن يكون مجرد مخرج يتدفق منه شعوره
بالبهجة .

في ذلك اليوم انتقل إلى مزاجه النفسي كالعدوى ، رحنا
نحيي كل من نلقاهم ونداعبهم ونخلف الضحك وراءنا في
بعض الأحيان والمضايقات في أحيان أخرى ، مريومنا بأسره كأنه
يوم عطلة ، رحنا نتبادل النكات المستعادة من أيام الصبا
ونستعيد ذكرى مزاح أيام الدراسة ، مضينا نطلق أسماء التذليل
على الفلاحين الذين يمرون بنا وفي بعض الأحيان على خيولهم
وثيرانهم ، توقفنا عند سور بستان لا يرى من الطريق وملأنا
جوفينا بمثار شجرة. يبدو لي أنه على امتداد عمر صداقتنا القصير
لم يلح نولب مرحا ومبتهجا ومسرورا على هذا النحو ، اعتقدت
مغتبطا ان ذلك هو البداية الحققة لحياتنا السعيدة المنطلقة معا .
عند الظهيرة اشتد القيظ ، فقضينا في الرقاد على النخيل وقتا
أطول مما قضيناه في المسير ، ومنذ الأصيل تجمعت سحب
عاصفة ، كان الهواء ساكنا وجائها على الصدور فقررنا البحث

عن مأوى نقضي فيه الليل .

غدا نولب أقل ميلا الى الحديث ، كان بعض التعب قد حل به لكنني لم لاحظ ذلك إذ واصل الضحك من قلبه كلما ضحكت واستمر في الغناء كلما رفعت عيني إليه ، أما أنا فغدوت أكثر مرحاً وحيوية من ذي قبل كأنما الألعاب النارية تتأجج بداخلي ، وربما كان الأمر على العكس تماماً من حال نولب ، ربما كانت أنوار يوم عطلته قد شرعت في الخفوت ، كان هذا شأني دائماً في ذلك الوقت ، ففي الأيام الطيبة كنت ازداد تدفقاً بالحياة كلما اقترب الليل ، ولو اني كنت بصدد امتاع نفسي لما كان بوسعي ان أتوقف ، وكم رحت أضرب ساعات طوالاً وحيداً بلا رفيق بعد ان يكون الآخرون قد مضوا في كلال الى مراقدهم .

سيطر علي توهج الأصيل في ذاك اليوم ، حينما هبطنا الوادي الفينا أنفسنا بازاء قرية متسعة ، تقف الى ليلة صاحبة ، اخترنا اول الأمر المكان الذي سنمضي فيه ليلتنا ، مخزن غلال مهجور يسهل الوصول اليه ، ثم مضينا الى القرية وجلسنا في حديقة نزل به ، فقد استضفت صديقي في ذلك المساء وحيث انه كان يوماً من الأيام الابتهاج ظننت أننا سنتناول أقراصاً من الحلوى المقلوبة وبضع زجاجات من الجعة .

قبل نولب الدعوة مغتبطاً ، لكننا حينما جلسنا الى المائدة في ظل شجرة دلب رائعة قال ببعض الحرج : « لا إسراف في

الشراب ، أليس كذلك ؟ سيسعدني أن احتسي زجاجة من
الجنة ، ستفيدني وتشعرنى بالمتعة لكن ذلك هو كل ما يمكنني
تناوله » .

لم أجادله ، حدثت نفسي بأننا سنحتسي قدر ما نشاء ، التهمنا
الأقراص الساخنة من خبز الشوفان الطازج الطيب ، على أن أقر
بأنى طلبت زجاجة أخرى من الجنة بينما كانت زجاجة نولب
الأولى ما يزال نصفها باقياً ، غمرتنى البهجة للعودة الى مثل هذا
النزل مرة أخرى والجلوس في مثل هذه الراحة والفخامة ، لم اكن
في عجلة من امري لمغادرة المكان .

حين أتم نولب احتساء زجاجة الجنة دعوته الى تناول أخرى
لكنه ابى ، اقترح علي ان نترى قليلاً في انحاء القرية بدلاً من
ذلك ثم نمضي الى مراقبنا مبكرين ، لم يكن ذلك هو كل ما في
ذهني ، لم استطع ان احده بذلك مباشرة ، حيث لم تكن
زجاجتي قد فرغت بعد لم أثير اعتراضاً على انصرافه قبلي على ان
نلتقي فيما بعد .

مضى ، رحلت اتملاه وهو يهبط الدرج ويمرح يوم العطلة
اللاهي يشق طريقه عبر الشارع المتسع المؤدي الى قلب القرية ،
كان يضع زهرة نجمية خلف أذنه ، شعرت بالأسى لأنه لم يرغب
في مشاركتي زجاجة جعة أخرى ، فيما كنت انظر اليه رحلت
أحدث نفسي بحب : يا له من رفيق رائع .

كانت الشمس قد اختفت في ذلك الوقت وأصبحت الحرارة
أشد وطأة ، كنت في مثل هذا الطقس اتمتع بأن اعكف في هدوء
على شراب بارد ، جلست في استرخاء الى مائدتي وأعددت نفسي
للمكوث بعض الوقت ، وحيث أنني كنت الضيف الوحيد
أتيح للمساقية وقت طويل لتجاذب أطراف الحديث معي ، طلبت
سيجارتين . كانت احدهما اصلا من أجل نولب لكنني نسيت ذلك
بعد برهة وقمت بتدخينها .

بعد ساعة أقبل نولب وحاول ان يمضي بي بعيداً لكنني كنت
قد ضربت جذوري في الأرض ، قال بأنه متعب ، فاتفقنا على
أنه ينبغي أن يمضي الى مرقدنا وأن يأوي الى مهجعه ، ما ان
غادرني حتى شرعت الساقية في طرح الأسئلة عنه ، كانت
الفتيات دائمت التعلق به ، لم أكرث لذلك ، فقد كان
صديقي ولم تكن هي فتاتي ، رحت أكيل الثناء له ، فقد كنت في
حالة رائعة وأحببت العالم بأسره .

شرع الرعد يدوي والرياح تصفر في لين عبر أشجار الدلب
حينما تاهبت في النهاية في وقت متأخر للرحيل ، سددت حسابي
نفحت الفتاة بتييز، وشرعت في المسير على مهل ، وقد أمضيت
ردحاً من الزمن دون شراب ، وراودني الآن شعور بأني تزيدت
في احتساء الشراب ، لكنني لم أتخل عن الشراب وجعلني الخمار
أشعر بالمرح فحسب ، غنيت خلال مسيرتي، عثرت بعد برهة

على مرقدنا ، دلفت في هدوء ، ألفيت نولب كما توقعت نائماً .
كان قد وضع سترته على الأرض ورقد فوقها بقامته ، كان جبهته
وعنقه العاري وذراعه الممتدة يلمع ببريق شاحب في العتمة .

رقدت بكامل ملابسي ، لكن انفعالي وفكرة الانطلاق المرح
التي ملأت رأسي بدداً نعاسي ، وكان النور يمس السماء حينها
سقطت في نوم عميق كثيب ، عميق ولكنه خال من السلام ،
شعرت بالثقل والتكاسل وراودتني أحلام مؤرقة معذبة .

استيقظت متأخراً ، كان الوقت ضحى ، فأذى البريق
غيني ، كانت رأسي خاوية تلفها السحب وعظامي تؤلني ،
رحت أثناء المرة بعد الأخرى وأحك عيني بيدي وأتمتع بعنف
الى حد أن مفاصلي قرقت ، بالرغم من كل إعبائي كنت لا
أزال احتفظ برؤية الأمس وصدى مرجه البراق ، شعرت بيقين
أن بوسعي التخلص من آلامي وأوجاعي عند أقرب نبع .

كنت على خطأ . فحينما تلفت حولي لم أجد نولب ،
ناديته ، رحمت أصفر له في البداية دون ان يراودني شك ، ولكن
حينما ذهب ندائي وصفيري وبحثي عبثاً ، خطر ببالي فجأة أنه
قد تركني ، نعم لقد مضى ، ابتعد دون كلمة ، لم يرد المكوث
معي ، ربما أثار خماري اشمئزازه ، ربما خجل من مرجه في اليوم
السابق ، أو ربما عرضت له رغبة طارئة ، أو سئم صحبتي لو

شعر بالحاجة الى الوحدة ، لكن من المحتمل بصورة أكبر أن
الأمر يعود الى خماري .

انجاب فرحي ، غلبني الخجل والأسى ، ترى أين صديقي
الآن ؟ على الرغم من خطبه كنت أفخر بأني أفهم روحه بغض
الشيء وبأن لي نصيب فيها ، الآن هوذا قد مضى . كنت
وحيداً ، محبطاً ، وجهت لنفسي اللوم بأكثر مما وجهته له ، جاء
دوري الآن لتذوق الوحدة ، التي كان نولب يرى أنها قدر كل
انسان ، والتي لم أومن حقاً بها قط ، كانت مريرة ، ولم تقتصر
مرارتها على ذلك اليوم الأول ، كانت حداثتها تخف بالطبع منذ
ذلك الحين من وقت لآخر لكنها أبداً لم تفارقني تمام المفارقة .



النهاية

كان اليوم من أيام اكتوبر المشرقة ، حركت دفقات قصيرة متقطعة من الريح الهواء ، الذي وشته الشمس بالدفء ، تصاعد الدخان الأزرق الشاحب المنبعث من مواضع حرق النفايات ، في غلالات رفيعة مترددة من الحقول والحدائق ، ففغم الريف المشع بالنور بعرف الخشب الأخضر والأعشاب المحترقة الحاد ، كانت بساتين القرية مزدهرة تحفل بزهور النجمة في سمت اكتمال ألوانها والورود الشاحبة المتأخرة عن أوانها وزهور الاضاليا ، وهنا وهناك على امتداد الأسوار كانت زهور الكبوسين المتوهجة لا تزال تتألق وسط الغرنوقي الذابل .

مضت عربة دكتور ماشولد ، في بطء ، على امتداد الطريق الصاعد هوناً نحو بولاخ ، كانت حقول الذرة على يسار الطريق

قد تم بالفعل انجاز حصاها ، لكن محصول البطاطس لم يكن
قد جمع بعد ، على اليمين كانت هناك رقعة محدودة من أشجار
الصنوبر وحائط بني اللون من جذوع الأشجار المتلاصقة
والفروع الداوية ، وكان للأرض اللون البني الجاف ذاته ، وقد
كستها إبر الصنوبر الجافة ، كان الطريق يتناهي مباشرة عند
حافة سماء الخريف الزرقاء الرقيقة ، كأنما العالم ينتهي عند قمة
المرتقى .

أرعى الطبيب العنان لجواده العجوز ، وتركه يمضي كيفما
يحلوه ، كان قد انصرف لتوه عن فراش الموت ، الذي رقدت
فيه امرأة يعتقد انها تجاوزت مرحلة تلقي المساعدة ، صارع
مستمياً من اجل حياتها حتى النهاية ، كان الاعياء قد أخذ منه
الآن وعمل السير الهادئ بالعربة عبر الريف على تهدئته ،
أمعنت افكاره ، وراحت تتابع في غبطة الصيحات التي امتزجت
برائحة الحرائق ، قادت به الى ذكريات بهيجة غائمة لعطلات
الدراسة الخريفية ، وأوغلت به الى أصوات الطفولة وعتمتها
المجردة من الأشكال ، فقد نشأ في الريف ، وكانت حواسه
تستجيب بعرفان وغبطة لمؤشرات الفصول والمواضع .

حينما توقفت العربة ، كان النعاس قد أوشك ان يغلبه ،
دفعه الى الاستيقاظ ، كان جدول يمتد عبر الطريق قد احتجز
العجلتين الاماميتين ، توقف الجواد مغتبطاً وراح ينتظر خافضاً
رأسه مستمتعاً بهذه الاستراحة .

ايقظ الصمت المفاجيء ماشولد ، فأحكم قبضته على
الأعنة ، وابتسم لمراى الغابات واشراق السماء وصفوها بعد
هنيهات غسقه الممدودات ، وبطريقة ودودة من لسانه دفع الجواد
الى التحرك مرة اخرى ، إعتدل في جلسته ، فلم يكن ليوافق
على الاغفاء نهارا ، واشعل سيجارا ، مضى الجواد وثيدا في
سيره ، حيث سيدتان ، تضعان على رأسيهما قبعتين عريضتي
الحواف ، الطيب من خلف صف طويل من اجولة البطاطس
المتخمة .

في ذلك الوقت ، كانت القمة قد غدت قريبة ، رفع الجواد
رأسه توقعا وتوقا الى المسيرة الطويلة الباقية حتى الدار عبر الجانب
الآخر من التل ، هنا لاح رجل في الأفق القريب المتوهج نوراً ،
وقف للحظة ، شامخاً ، طليقاً ، تلفه الزرقة البراقة ، ثم حينما
شرع في هبوط المنحدر غدا رمادياً ضئيلاً ، اقترب فبدا نحيفاً ،
ملتحيماً ، رث الثياب ، ووضح اعتياده السير عبر الطرقات ،
كانت مشيته توحى بالانهك والألم ، لكنه رفع قبعته في كياسة ،
وقال : « طاب يومك » .

- « طاب يومك » .

قالها دكتور ماشولد ، وتابع الغريب بناظره حينما مضى في
طريقه ، فجأة أوقف جواده ، إنبعث واقفاً ، التفت الى الخلف
عبر غطاء العربدة التي كانت تبعث بصريرها وهتف : « رويدك ،
أقبل هنا لحظة ! » .

توقف جواب الأفاق المترب ، التفت الى الخلف ، ابتسم في
اعياء ، أشاح بناظره ، بدا كما لو كان سيواصل المسير ، غير
رأيه واستجاب .

وقف الآن إلى جوار العربة ، وقبعته في يده . .

قال ماشولد : « هل بمقدوري أن أسألك الى أين
تمضي ؟ » .

— « إلى الامام مباشرة نحو بير ختو لوسيج » .

— « ألا يعرف أحدنا الآخر ، الاسم وحده هو الذي يغيب
عني ، أنت تعرفني ، أليس كذلك ؟ » .

« يمكن القول بأنك دكتور ماشولد » .

— « ماذا أقول لك ؟ لكن ما هو اسمك ؟ » .

— « لا بد أنك تعرفني ، يا دكتور ، فقد كنا معاً في صف
دراسي واحد في بلوخير ، وقد اعتدت نسخ تدريبات اللغة
اللاتينية الخاصة بي » .

انتفض دكتور ماشولد ، حلق في عيني الرجل ، ضحك ،
وربت على كتفه .

— « الأمر كذلك ، أنت نولب الشهير ، وقد كنا رفيقي صف
واحد ، دعني أصافحك ، أيها الصديق القديم !

لا بد أن عشر سنوات انقضت منذ التقينا لآخر مرة ، الا
تزال تمضي على الطريق ؟ » .

- « لازلت على الطريق ، فالمرء يزداد تمسكاً بعباداته كلما
أرغل في العمر » .

- « هذا صحيح ، أنا في الطريق الى جيربرسو ، إذ لدي
مهمة صغيرة يتعين انجازها » .

- « أدرك ذلك ، الا يزال احد من رفاقنا على قيد
الحياة ؟ » .

- « كلا ، لم يعد هناك احد » .

« لم تعد تبدو شاباً يافعاً ، يا نولب ! كلانا ما زال في
الأربعينيات من العمر . وها أنت ترغب في المرور بي على هذا
النحو ، لم يكن ذلك جميلاً منك ، وكما تعلم ، فإنني اعتقد انك
قد تكون بحاجة الى طبيب » .

- « ليس بي من بأس ، وأما ما بي حقاً فما من طبيب يمكن
ان يعالجه » .

- « سننظر في هذا ، ما عليك الا أن تصعد الى العربة
ونغضي معي ، فعلى ذلك النحو نستطيع الحديث بشكل
أفضل » .

تراجع نولب قليلاً ، وضع قبعته فوق رأسه ، وبنظرة حرج
فلوم الطبيب حينما حاول مساعدته على صعود العربة .

قال : « ولم ؟ لن يعدو جوادك طالما أننا جالسان هنا » .

لكن نوبة من السعال غلبته عندئذ ، فأمسك به الطبيب ،
الذي أدرك حينئذ كنه الأمر دون ان يضيف المزيد ، وعاوناه على
ركوب العربة .

قال وهو يقودها : « سوف نصل الى القمة خلال لحظة ،
وما هي الا مسيرة قصيرة بعد ذلك ونصل الى الدار ، في خلال
نصف ساعة ، ليس عليك قول أي شيء الآن مع هذا السعال ،
بوسعنا تبادل الحديث حينما نصل الى الدار ، ماذا ؟ لا شيء من
هذا ! ان مكان المرضى هو الفراش لا الطريق . لقد ساعدتني بما
فيه الكفاية في دروس اللاتينية ، وقد حان دوري الآن » .

عبرا القمة ، راحت العربة تققع ، وهما يهبطان المنحدر
الطويل . بعيداً في أسفل التل ، كان بوسع المرء بالفعل ان يرى
اسقف بولاخ عبر اشجار الفاكهة ، احكم ماشولد قبضته على
العنان وراح يراقب الطريق بينما استسلم نولب بين الاغتياب
والتردد لكرم صديقه الطاغى ، وراح يحدث نفسه قائلاً :
« غدا ، او في أسوأ الأحوال بعد غد سأمضي في الطريق الى
جيربرسو اذا كانت عظامي لا تزال متماسكة ، لم يعد ذلك
الحدث اليافع الذي يمكنه ان يهدر ايامه واعوامه ، كان كهلا
مريضاً رغبته الأخيرة الباقية ان يشاهد بلدته مرة اخرى قبل ان
تحل النهاية » .

في بولاخ اصطحبه صديقه الى الغرفة الكبرى ، وقدم له لبناً
وخبزاً وشرائح من فخذ خنزير ، راحا يثرثران سوياً ، وعلى مهل

استعدادا الفتها القديمة ، حينذاك فحسب بدأ الطبيب فحصه ،
الذي احتمله المريض بروح طيبة وبلمسة من السخرية .

قال ماشولد حينما فرغ من الفحص : « أتعلم ما بك ؟ »
قالها بخفة ودون ايجاء بالخطورة ، الأمر الذي أثار امتنان نولب .
قال : نعم يا ماشولد ، أعلم ، انه السل ، وأعلم أنه ليس
بمقدوري ان اصمد طويلاً » .

- « لا يمكنك القطع بذلك على الاطلاق ، عليك فحسب
ان تضع في ذهنك انك بحاجة الى فراش والى عناية ، اما الآن
فبمقدورك البقاء معي هنا ، وسأجد لك فيما بعد مكاناً في أقرب
مستشفى ان لك افكاراً مجنونة ، يا بني ، وسيتعين عليك ان
تعي الأمور جيداً اذا ما أردت ان تبلى من مرضك » .

ارتدى نولب سترته ، التفت الى الطبيب ، وقد ارتسمت
اللامبالاة على وجهه الهضيم الكابي ، قال بسماحة :
« ماشولد ، ستواجه متاعب جمّة بسببي ، ذلك جميل منك ، لكن
الأوان فات ، لا ينبغي ان تتوقع الكثير مني » .

- « سنرى ذلك ، اما الآن فعليك بالجلوس في الشمس ،
طالما انها تأتلق في الحديقة ، ستعد لنا الفراش في غرفة
الضيوف ، علينا ان نرعاك ، يا نولب ، فحينما يلقي رجل قضى
حياته بأسرها تحت الشمس وفي الهواء الطلق متاعب في الرئة ،
من بين كافة الأمور ، فلا بد ان هناك ما لا يسير على ما يرام » .

قال ذلك ثم مضى خلفاً صديقه .

لم تكن لنا ، مدبرة المنزل ، تشعر بالحبور ازاء فكرة ترك
جواب آفاق عادي يدلف الى حجرة الضيوف . لكن الطبيب
بادرها قائلاً : « ليكن ، يالينا ، فالرجل لن يعمر طويلاً ، دعينا
نكفل له الراحة قليلاً ، لقد كان نظيفاً دائماً ، وسنحرص على ان
يستحم قبل ان يدلف الى الفراش ، قدمي له إحدى مناماتي ،
وربما ان بوسعك اعطاؤه خفي الشتويين ، لاتنسي انه صديقي .
رقد نولب إحدى عشر ساعة ، كان النعاس لا يزال يلفه في
الصباح الضبابي ، مر بعض الوقت قبل ان يتذكر موضعه ،
حينما اشرقت الشمس تركه ماشولاً ينهض .

الآن بعد تناول طعام الغذاء ، جلسا في الشرفة المشمسة ،
عاكفين على قدحين من النبيذ الأحمر ، كانت الوجبة الطيبة
ونصف قدح النبيذ قد جعلنا نولب يتدفق حياة ويميل الى
الحديث ، كان الطبيب ينتزع ساعة من عمله ليثرثر مع صديقه
العجوز الغريب ، ربما ليعرف بعض الأمور عن حياته غير
المألوفة .

قال باسما : « هكذا فإنك اجمالاً راض عن الحياة التي
عشتها ، ذلك يجعل كل شيء على ما يرام والا فستراودني الرغبة
في القول بأنك كان يمكن ان تصنع من نفسك اكثر مما انت
عليه ، ما كان عليك ان تصبح قسا او مدرسا ، كان يمكن ان

تغدو دارساً للطبيعة او شاعراً ، لا اعرف المدى الذي ذهبت اليه
في تنمية مواهبك او استخدامهما ، ولكنك ان كنت قد
استخدمتها فقد كان ذلك لصالحك تماماً ، ام تراني على
خطأ ؟ » .

اسند نولب ذقنه بلحيتها المتناثرة الشعر على كفه المطبقة ،
وراح يراقب الانعكاسات المتماوجة فوق غطاء المائدة الملتصق في
أشعة الشمس خلف قدحه .

بيطاء قال : « ليس ذلك صحيحاً تماماً ، فمواهي كما
تسميها لا تعني الكثير ، إنني أجيد الصغير ، استطيع العزف على
الاكورديون ونظم قصيدة صغيرة بين الفينة والأخرى ، كنت
عداءاً جيداً ، ولم اكن راقصاً سيئاً ، تلك هي جل مواهي ،
لكني لم اتمتع بها وحدي ، فدائماً على وجه التقريب كان هناك
اصدقاء حولي او فتيات او اطفال ، وقد منحتهم هداياي
الصغيرة السرور ، وفي بعض الأحيان كانوا يشعرون بالعرفان
نحوي ، لم انشد المزيد ؟ الا نستطيع الاكتفاء بذلك ؟ » .

قال الطبيب : « بلى ، بوسعنا حقاً ، لكن لدي شيئاً واحداً
اود سؤالك عنه ، لقد درست اللاتينية حتى الصف الخامس ،
اذكر ذلك بوضوح ، كنت طالباً جيداً ، وان لم تكن نموذجاً
للكمال على وجه الدقة ، وذات يوم اختفيت ، سمعت انك
مضيت الى مدرسة عامة ، وكانت تلك نهاية صداقتنا ، ففي تلك

الأيام لم يكن لطالب مدرسة لاتينية ان يصادق احداً في مدرسة عامة ، كيف حدث ذلك ؟ فيما بعد ، وحينما يأتي احد على ذكرك ، كنت احدث نفسي قائلاً : لو انه ظل معنا في المدرسة اللاتينية لتغير مجرى حياته ، اذن فحدثني ما الذي وقع ؟ هل ضقت بالأمر ذرعاً ؟ ألم يستطع والدك دفع الرسوم ؟ ام كان هناك شيء آخر ؟ » .

ضم المريض يده البنية المهزولة على قدحه ، رفعه ، لكنه لم يشرب ، راح يحدق عبر النبذ الى نور الحديقة الخضراء ، وضع القدح بعناية على المنضدة مرة اخرى ، اغمض عينيه في صمت ، وضل في متاهة من الأفكار .

تساءل صديقه : « ايضاً يذكرك الحديث عن ذلك ؟ ما من حاجة تدعو اليه » .

فتح نولب عينيه ، ورمق ماشولد بنظرة طويلة فاحصة .

قال ، وما زال على تردده : « لا ، اعتقد ان هناك حاجة تدعو الى ذلك ، تدرك انني لم اتحدث اطلاقاً عن هذه الأمور مع احد ، لكن ربما يتعين ان يعرف احد الآن ، انها قصة طفولية لا اكثر ، لكنها كانت هامة بالنسبة لي ، لقد عذبتني سنوات طوال ، ومن الغريب انك طرحتها » .

— « ولم ؟ » .

– « لأنها كانت تدور بذهني مؤخراً ، وذلك هو السبب في أني في طريقي الى جيزبرسو » .

– « في هذه الحالة عليك بالحديث عنها » .

– « أتذكر يا ماشولد ؟ كنا صديقين حميمين في ذلك الوقت ، ربما حتى الصف الثالث او الرابع ، بعد ذلك لم يعد احدا يري الآخر كثيراً ، ومرات عديدة رحت تصفر خارج دارنا ولم أبادر بالرد » .

– « يا الهي ، هذا صحيح ! لم يخطر ذلك ببالي طوال عشرين عاما ، اي ذاكرة تلك التي تتمتع بها ! إستمروا ! » .

– « يمكنني الآن ان احدثك بما جرى ، كانت الفتيات هن السبب ، كان شغفي بهن قد بدأ في وقت مبكر للغاية ، وفي وقت كان من المعتقد فيه انك لا زلت تلهو بحاجيات الأطفال كانت لدي فكرة واضحة تماما عما يفعله الفتية والفتيات معا ، لم يعد بامكاني ان أفكر في أي شيء آخر ، وذلك هو السبب في أني كففت عن ممارسة لعبة الهنود معك ومع الأصدقاء الآخرين » .

– « لكنك كنت في الثانية عشرة فحسب ! » .

– « كنت في الثالثة عشرة تقريباً ، فأنا أكبر منك بعام ، ذات يوم ، وبينما كنت ملازماً فراش المرض ، قدمت فتاة من قريباتي للاقامة معنا ، كانت اكبر عمرا مني بثلاثة اعوام او اربعة ،

شرعت تعابثني ، وحينما استرددت عافيتي دلفت ذات ليلة الى غرفتها واكتشفت ما تعنيه المرأة ، تملكني الفزع ، فاندفعت هارباً ، لم أبادل الحديث بعد ذلك مع قريبتى ، كنت أشعر بالتقزز والخوف منها ، لكنها منحنتني الفكرة ، بعدها كان كل ما يشغلني هو مطاردة الفتيات ، كانت لهاسيس الدباغ ابتنان في مثل عمري ، وكانت هناك فتيات أخريات في المنطقة المجاورة ، كنا نمارس لعبة الاختباء والبحث في العلية المعتمة ، وكنا نتضاحك وتبادل العبث ونقوم بأمور سرا ، كنت معظم الوقت الفتى الوحيد بينهن ، بين الحين والآخر كانت إحدى الفتيات تتركني اجدل شعرها او تقبلني ، كنا جميعاً أطفالاً ، ولم نكن نميز الأمور حقاً ، لكن كل شيء كان بديعاً ، حينما كانت الفتيات يذهبن للسباحة كنت اختبئ بين الشجيرات وراقبهن ، وذات يوم ظهرت فتاة جديدة ، كانت تقيم في الضواحي ، ويعمل والدها في مصنع الغزل ، كان اسمها فرانزيسكا ، احببتها من اول نظرة .

قاطعها الطبيب قائلاً : « ما اسم والد الفتاة ؟ ربما كنت اعرفها » .

— « معذرة ، يا ماشولد ، اوثر الا اخبرك ، فلا علاقة لذلك بالقصة ولست ارغب في ان يعرف احد ذلك عنها ، على اية حال كانت اكبر سناً وأقوى مني ، كنا في بعض الأحيان نتدحرج ونتصارع ، حينما كانت تعتصرني حتى الألم كان ذلك

يجعلني اشعر بالدوار وما يشبه الخمار ، احببتها ، كانت اكبر مي
بغامين ، دأبت علي القول بأنها تعتزم اتخاذ حبيب لها قريبا ، كان
كل ما انشده في العالم بأسره ان اصبح حبيبها ، ذات يوم كانت
تجلس وحيدة تماما في حديقة الدباغ قرب النهر، وقد تدلت
قدمها في الماء ، كانت تستحم وكل ما ترتديه هوثوبها
الداخلي ، مضيت ، فجلست الى جوارها ، استجمعت فجأة
شجاعتي ، وحدثتها بأني أرغب في ان تكون حبيتي ، لكنها
رمقتني بنظرة اشفاق من عينيها الكستنائيتين ، قالت : « لست
الا طفلا يرتذي سراويل قصيرة ، ما الذي تعرفه عن الحب ؟ »
حدثتها بأني اعرف كل شيء عنه وانها ان لم تصبح حبيتي لألقيتها
في النهر والقيت نفسي معها ، اثار ذلك اهتمامها ، رمقتني بنظرة
اثوية ، قالت : « دعنا نجرب ، اتعرف كيفية التقبيل ؟ أجل ،
قلتها ، وقبلت شفيتها قبله سريعة ، لكنها امسكت برأسي ،
واحكمت قبضتها ، وقبلتني قبله حقيقية شأن امرأة مكتملة
الأنوثة حتى زاغ بصري ، قالت : « ستلائمني على أية حال ، يا
فتاي ، لكن ذلك لا يمكن ان يحدث ، فليس بامكاني ان اتخذ
حبيباً يرتاد المدرسة اللاتينية ، انهم لا يصنعون رجالا حقيقيين ،
وانا بحاجة الى رجل حقيقي اتخذه حبيباً ، ميكانيكيا او عاملا ،
لا مثقفا ، لذا فليس الأمر بالامكان » ، لكنها جذبتني اليها ،
كان جسدها متماسكا ، دافئاً ، لين الملمس بين ذراعي ، فلم
بعد بوسعي الحلم بتركها ، وعدتها بأني سأترك المدرسة

اللاتينية ، واغدو ميكانيكيا ، انبعثت ضاحكة لكني ما كنت لأراجع ، في النهاية قبلتني مرة اخرى ، وعدتني بأنها اذا ما تركت المدرسة اللاتينية ستصبح حبيبي واني سأسعد معها .

توقف نولب ، أخذته نوبة سعال ، تطلع اليه صديقه بانتباه ، للحظة لفهما الصمت ، ثم تابع نولب حديثه : « طيب ، الآن الممت بالقصة ، بالطبع لم تجر الأمور بالسرعة التي توقعتها ، لطمني ابي حينما حدثته بأني لم اعد ارغب في الذهاب الى المدرسة اللاتينية ، في البداية حرت ما الذي يمكن ان أصنعه ، فكرت مرات في اشعال النار بمدرستنا ، كان ذلك عبثا طفوليا ، لكني كنت جادا فيما يتعلق بفكرتي الرئيسية ، اخيرا فكرت في مخرج ، فكففت عن التصرف كطالب جيد ، الا تذكر ذلك ؟ » .

— « بلى ، اذكر ذلك الآن ، ولبعض الوقت كنت تعاقب يوميا » .

— « هذا صحيح ، توقفت عن حضور الدروس ، أجبت بردود خاطئة ، تعمدت عدم القيام بواجباتي المنزلية ، فقدت كراساتي ، كنت أرتكب خطأ كل يوم . وفي النهاية بدأت استمتع بذلك ، من المؤكد اني ضايقت المدرسين ، في ذلك الوقت كنت قد فقدت كل اهتمامي باللغة اللاتينية وما الى ذلك ، كنت مندفعاً دائماً كما تعلم ، فحينما اتحمس لشيء جديد

لا يعود هناك شيء آخر في العالم ، كان الأمر كذلك بالنسبة للرياضة ثم بالنسبة لصيد السمك فعلم النبات ، الآن حدث الأمر ذاته بالنسبة للفتيات ، وحتى انغماسي في هو الشباب وتكامل تجاربي لم يحدث أمر آخر ، من المؤلم للغاية ان تجلس في فصل مدرسي مردداً تصريحات الأفعال بينما كل ما يمكنك التفكير فيه حقاً هو ما رأيته يوم كانت الفتيات يشبحن ورحت تختلس النظر اليهن ، طيب ، هكذا الأمر ، وربما خمن المدرسون ما هناك ، كانوا يحبونني ، فأغضوا طالما كان ذلك ممكناً ، كان يمكن ان تمنى خطتي بالفشل لو لم أصادق شقيق فرانزيسكا ، كان في الصف الأخير من المدرسة العامة ، لم يكن بالفتي الدمث الأخلاق ، تعلمت منه الكثير ، وكان كل ما تعلمته سيئاً ، خلال أشهر قلائل حققت ما أردته ، عاقبني أبي عقاب العمر ، لكنني كنت قد طردت من المدرسة اللاتينية ، والتحقت بصف شقيق فرانزيسكا .

تساءل ماشولد : « والفتاة ؟ ماذا عنها ؟ » .

— « كان ذلك أسوأ ما في الأمر ، فلم يحدث أبداً ان غدت حبيتي ، وحينما شرع أخوها في اصطحابي الى الدار كفت عن سلوكها الطيب معي ، عاملتني كما لو كنت قد انحدرت في هذا العالم ، بعد قضاء شهرين في المدرسة العامة تعودت التسلل خارج الدار بعد حلول الظلام ، في ذلك الوقت اكتشفت

الحقيقة ، فذات ليلة كنت اتجول في الحديقة ، كان ثمة عاشقان يقتعدان إحدى الارائك ، وقفت هناك على نحو ما أفعل بين الحين والآخر اختلس النظر واسترق السمع ، حينما امعنت في الاقتراب ادركت انهما فرانزيسكا وميكانيكى. شاب ، لم يلاحظاني ، كانت ذراعه تلتف حول عنقها وهو يمسك بسيجارة ، كانت كنزتها قد فكت أزرارها ، و . . . ، طيب ، كان الأمر مرعبا ، ذهب كل عنائي سدى .

ربت ماشولد على ظهر صديقه : « ربما كان ذلك أفضل » .

— « لا ، بالتأكيد لم يكن أفضل ، ولا زلت على استعداد لأن أضحي بيمينى مقابل اختلاف الأمر عما صار اليه ، لا تقل كلمة ضد فرانزيسكا ، فلم تكن لها يد فيما حدث ، ولو ان الأمور سارت على ما يرام لكانت تجربتي الأولى في الحب تجربة جميلة سعيدة ، ربما كان ذلك قد ساعدني على اعتياد المدرسة العامة وإعادة الأمور الى مجراها مع أبي ، لأنه كما تدرك . . . ماذا عساني أقول ؟ منذ ذلك الحين اصبح لي اصدقاء طيبون وأصدقاء عابرون بل وصديقات ، لكنني لم اعتمد ابدا على وعد احدهم ، ولم اعط وعدا لأحد ، أبدا لم يحدث ذلك مرة اخرى ، لقد عشت حياتي وفق ما رأيته مناسباً ، كان لي نصيبي من الحرية والاطياب لكنني كنت وحيدا دائما » .

التقط قدحه ، ارتشف بعناية قطرات النبيذ القليلة الباقية ، وانبعث واقفا .

— « اذا لم يضايقك الأمر فأعتقد أني سأوي للفراش مرة
اخرى ، لست ارغب في المزيد من الحديث عن الأمر ، ولا بد
ان لديك امورا تشغلك » .

أوما الطبيب موافقاً : « كلمة واحدة فحسب ، سأكتب
خطابا الآن لأرى ما إذا كان بوسعي ادخالك المستشفى ، ربما لا
تروق لك الفكرة ، لكنه ما من سبيل آخر ، لسوف تنتهي ما لم
تلق الرعاية المناسبة سريعا » .

صاح نولب بعنف غير مألوف : « وما الفارق ؟ سأنتهي
على أي حال ، لا جدوى الآن ، وأنت تعلم ذلك ، لم أترك
نفسي أسجن ؟ » .

— « لا تقل ذلك ، يا نولب ، عليك بالتعقل ، أي طبيب
أنا اذا ما تركتك تهيم على وجهك بحالتك تلك ؟ لسوف نحصل
على سرير لك في أوبير شتيتين ، سأعطيك خطابا ، وخلال
الأسبوع المقبل سأمضي لأتابع حالتك ، ذلك وعد مني » .

غاص جواب الآفاق في مقعده ، بدا موشكا على البكاء ،
مضى يفرك يديه ، كما لو كانتا باردتين ، ثم التفت الى الطبيب
بنظرة مفعمة بالتوسل الطفولي .

بصوت بالغ الرقة قال : « طيب ، اذا كان الأمر كذلك ،
فإن لدي معروفاً كبيراً أناشدك ان تسديه الى ، لا تغضب ،
ليس ذلك جميلاً مني ، فقد اسديت إلى الكثير ، وقدمت لي حتى

النبيد الأحمر ، كنت طيباً للغاية ، ولست استحق ذلك ،
لكن . . . » .

ربت ماشولد كتفه ليعيد الثقة اليه : « لا تكن سخيّاً ، أيها
الصديق القديم ، لا أحد يحاول ارغامك ، عليّ بالأمر ! » .

— « الن تغضب ؟ » .

— « كلا بالطبع ، ولم اغضب ؟ »

— « إذن ، يا ماشولد ، فاني أرجوك ، انه معروف كبير ،
لا ترسلني الى أوبير شتيتين ، إذا كان لا بد من ذهابي الى
مستشفى ، فان أود الذهاب الى جيربرسو ، الناس يعرفونني
هناك ، سأشعر بأني في داري ، ربما كان ذلك أفضل للمستشفى
كذلك ، فقد ولدت هناك ، أضف الى ذلك . . . » .

بحرارة توسلت عيناه ، تملكه الانفعال ، فعجز عن
الحديث .

حدث الطبيب نفسه بأنه محموم ، قال بهدوء : « إذا كان
ذلك هو كل ما تبغيه فقد اتفقنا ، فكرة طيبة ! سأكتب الى
جيربرسو ، الآن امض الى فراشك ، فقد تحدثت أطول مما
ينبغي » .

تابع جواب الآفاق بناظريه وهو يدلف الى الدار ، فجأة
تذكر الصيف الذي علمه نولب خلاله كيف يصيد السمك ،
راح يفكر في الصبي الوسيم الودود ذي السنوات الاثنتي عشرة

وفي طريقته المفعمة بالاعتداد والالمام في معاملة اصدقائه .

كان الصباح التالي غارقاً في الضباب ، فمكث نولب طوال اليوم في الفراش ، كان الطبيب قد أحضر له بضعة كتب ، لكنه لم يمسهها ، كان قلقاً ومكتئباً ، فالآن وهو يحيا في كنف الراحة ، يحظى بطعام طيب وفراش وتير كان يشعر بوضوح يفوق ما عهده من قبل ان النهاية وشيكة .

راح يحدث نفسه : « لو اني رقدت هنا أياماً قللاً أخرى لما نهضت ثانية » ، لم يعد يكثرث بالحياة كثيراً ، ففي السنوات القليلة الأخيرة كان الطريق قد فقد كثيراً من جاذبيته بالنسبة له ، لكنه لم يكن يرغب في ان يلقي منيته الا بعد ان يرى جيربرسو ويودع اماكن عديدة ، النهر ، الجسر ، السوق ، حديقة ابيه العتيقة ، وفرانزيسكا كذلك ، كانت قصص حبه الأخيرة قد غمرها النسيان تماماً كما تراجعت سنوات تجوله الطويلة في ذاكرته وفقدت اهميتها بالنسبة له بينما اكتسبت أيام صباه الغامضة توهجا وسحرا جديدين .

راح يفحص حجرة الضيوف عن كتب ، لم يكن قد عاش على هذا النحو المترف لسنوات طوال ، تلمس بعينين خبيرتين وأصابع حساسة نسيج اغطية الفراش والدثار الناعم المصنوع من الصوف الطبيعي واغطية الوسائل البديعة ، اثار الأرضية الخشبية الصلبة اهتمامه كذلك وعلى الحائط كانت هناك صورة

لقصر الدوق في اطار من الفسيفساء البلورية .

رقد برهة طويلة بعينين مفتوحتين غائمتين ، شفه الاعياء ،
فما عاد يكثرث لشيء خلا ما يجري في جسده العليل ، لكنه
فجأة شرع في النهوض ، انحنى خارجاً من الفراش وبأصابع
متعجلة التقط حذاءه ، فحصه بعناية خبير ، كان في حالة سيئة
لكن اكتوبر كان قد أقبل بالفعل وسوف يصمد حتى أولى بشائر
الجليد ، عندئذ سينتهي كل شيء ، خطر له ان يطلب من
ماشولد حذاءً قديماً ، لا ، ان ذلك حري باثارة شكوكه ، فأنت
لا تحتاج الى حذاء في المستشفى ، مرر أصابعه فوق التشققات
التي تعلوه ، لو انه دلکها جيداً ببعض الشحم لصمد الحذاء
شهوراً آخر بالتأكيد ، فلا داعي للقلق ، لسوف يفوقه حذاؤه
العتيق عمراً ، ويظل صالحاً للاستخدام حينما يختفي صاحبه من
الطرق .

ألقي بالحذاء ، حاول التنفس بعمق لكن ذلك آلمه وهيج
سعاله ، رقد ساكناً ، راح ينتظر ملتقطاً انفاساً قصيرة ، عذبه
لخوف من التخاذل قبل ان يحقق رغبته الأخيرة .

حاول التفكير في الموت ، على نحو ما كان يفعل بين الحين
والآخر ، لكن ذلك ارهقه فأخذته سنة من النوم ، حينما استيقظ
عقب ذلك بساعة شعر بالانتعاش والهدوء كأنه رقد أياماً ، فكر
في ماشولد ، شعر بأنه يود لو ترك له رمزاً لعرفانه حينما يمضي

بعيداً ، قرر ان يكتب احدى قصائده ، فقد سأله الطبيب عنها
في اليوم السابق فحسب ، لكنه لم يستطع تذكر ايا منها او انه لم
يعبأ بما يذكره ، تطلع من النافذة ، شاهد الضباب يلف الغابات
القريبة ، شرع يحدق فيها حتى غلبته افكاره ، من درج المنضدة
المجاورة ازال الورقة البيضاء الناصعة التي كانت تبطنه ، وكتب
بقلم التقطه من الدار .

لا بد للزهور ان تذوي ،
حينها يحل الضباب .
لا بد للناس من الموت ،
والانحدار الى قبورهم .
الناس زهور ،
هم ايضا سيرجعون
في زمن الربيع ،
عندئذ لن يحل بهم المرض مرة اخرى ،
سيعتقدون كل شيء .

توقف ، طالع ما كتبه ، لم تكن أغنية حقيقية ، فقد غابت
عنها القوافي لكن كل ما أراد ان يقوله كان وارداً بها ، بلل القلم
بلسانه وكتب تحتها : « الى الدكتور ماشولد من صديقه الممتن .
ن » .

ثم وضع الورقة في الدرج الصغير .

في اليوم التالي كان الضباب لا يزال مخيماً ، لكن الهواء كان بارداً وحاداً ، بدا محتملاً ان الشمس ستشرق عند الظهر ، اقبل ماشولد ، وابلغه ان هناك فراشاً له في مستشفى جيربرسو ، وأنهم ينتظرونه هناك ، حينها رجاه نولب ان يسمح له بالنهوض وافق على هذا الرجاء .

قال نولب : « سأقوم بجولة عقب الغذاء مباشرة ، سيستغرق الأمر أربع ساعات وربما خمسا » .

ضحك ماشولد « هذا كل ما تحتاجه ! لا تجوال في الوقت الحالي ، اذا لم نجد اي شيء آخر ، سأحملك في عربتي ، سوف أسأل العمدة فرما كان بسبيله الى ارسال ملء عربة من الفاكهة او البطاطس الى المدينة ، لا يهم يوم اكثر أو أقل » .

استسلم الضيف ، بعث العمدة برسالة يقول فيها ان اجيره سيمضي بعجلين الى جيربرسو في اليوم التالي ، فتقرر ان يمضي نولب مع الأجير .

قال ماشولد : « لكن بوسعك استخدام معطف اثقل ، أتستطيع ارتداء احد معاطفي ام انه سيكون فضفاضاً ؟ » .

لم يبد نولب اعتراضاً ، تمت تجربة المعطف ووجد مناسباً ، وحيث كانت نوعيته جيدة ومازال في حالة ممتازة قرر نولب بخيلائه الطفولي في الحال ان يحكم الأزرار ، راح الطبيب يتطلع اليه مسرورا ، وخلع عليه ياقة قميص لتكتمل الصورة .

في ذلك الأصل راح نولب في سرية بالغة يتطلع الى صورته
في ملابسه الجديدة ، كان يبدو أنيقاً الى حد انه شعر بالأسى
لعدم قيامه بحلاقة لحيته مؤخراً ، لم يجرؤ على طلب موس
الحلاقة الخاصة بالطبيب من مدبرة الدار لكنه كان يعرف حداد
القرية ، فمضى ليرى ما يمكن عمله في هذا الصدد .

سرعان ما عثر على حانوت الحداد فوجه ملقياً بالتحية على
الصانع العجوز : « حداد عجوز من أراض غريبة يطلب
عملاً . »

تفحصه الحداد ببرود ، قال « لست حداداً ، ولا يمكنك
خداعي » .

ضحك نولب : « في ذلك من الحقيقة ما يكفي ! لازلت
تتمتع ببصيرتك ، مضحك انك لم تعرفني ، أتذكر ؟ كنت
موسيقياً ومرات عديدة رقصت على عزفي للاكورديون في ليالي
السبت في هايرباخ » .

عقد الحداد حاجبيه ، راح يعن التذكر للحظات قلائل ،
ثم مضى بنولب الى الضوء وراح يتفحصه .

بضحكة قصيرة قال : « تذكرت ، أنت نولب ، الناس
يطعنون في السن حينها لا تراهم لوقت طويل ، ماذا تصنع في
بولاخ ، بوسعي أن أتبع لك تينز وقدحاً من العصير » .

– « جميل منك ذلك ، أيها الحداد ، وأقدره لك ، لكني
انشد شيئاً آخر ، هل تقرضني موساك لبضع لحظات ، فسوف
أمضي للرقص الليلة » .

مد الحداد اصبعه مهدداً ، قال : « أنت أيها الملقق
العجوز ! انظر كيف تبدو ، يلوح لي انه ليس بوسعك الحرص
على شهود الرقص » .

ضحك نولب بمرح ضحكة مكتومة : « لا يفوتك شيء ،
كان ينبغي ان تصبح قاضياً ، طيب ، نعم سأمضي الى
المستشفى غداً ، سيرسلني ماشولد الى هناك ، طبعي اني لا
أستطيع الظهور بهذه الملحفة على وجهي ، اعطني موساك ،
وستسعيدها خلال ساعة » .

– « والى اين تمضي بها ؟ » .

– « الى دار الطبيب ، فأنا أقيم هناك ، هل يمكنني
أخذها ؟ » .

لم تبد قصة نولب جديرة بالتصديق تماماً ، فساورت
الشكوك الحداد .

– « تستطيع اخذها ، لكنها ليست موسى عادية ، كما
تعلم ، انها من طراز سولنجين الأصلي ، وأريد ان اراها ترد
الي » .

ـ « لسوف تراها » .

ـ « بالطبع ، لنقل ، هذا معطف جميل ذاك الذي ترتديه ، ولن تحتاجه لتحلق لحيتك وأنت ترتديه ، ماذا أقول لك ! انزعه ودعه معي ، وحينها تعود بالموس سأعطيك معطفك » .

تجهم نولب : « ليكن ، انك لست اميرا على وجه الدقة ، لكنها مبادلة » .

احضر الحداد الموس ، ترك نولب معطفه كرهينة ، لكنه لم يوافق على ان يمسه الحداد الكثيب ، عقب نصف ساعة اعاد الموس ، كانت لحيته الشعثاء قد اختفت ، وبدا مختلفاً تماماً .

قال الحداد باعجاب : « الآن كل ما تحتاجه هو زهرة خلف أذنك وتغدو متأهباً للمضي لخطب ود النساء » .

لكن نولب لم يعد في حالة مزاجية مريحة ، ارتدى معطفه ، اعرب عن شكره للحداد ، وغادر الحانوت .

في الطريق الى الدار قابل الطبيب الذي استوقفه .

سأله فزعاً « أين كنت ؟ ما أغرب ما تبدو ! آه ، لقد حلقت لحيتك ، يا لك من طفل كبير ! » .

لكنه كان مسروراً ، وفي ذلك المساء احتسى نولب النبيذ الأحمر مرة اخرى ، احتفل الصديقان بافتراقهما ، وهما يتظاهران بالرح ، ويقمعان اي دلالة على الأسى .

في الصباح الباكر اقبل اجير العمدة بالعربة ، كان العجلان
يقفان بأرجل مرتعدة في اقفاص خشبية ، يحدقان بأعين واسعة
في الصباح البارد ، كانت بشائر الجليد تمتد عبر السهوب ، مدت
يد المساعدة لنولب كي يجلس في المقعد الأمامي الى جوار
الأجير ، ووضع دثار على ركبتيه ، حيا الطبيب نولب شادا على
يديه وقدم نصف مارك للأجير ، وبينما راحت العربة تصلصل
مبتعدة اشعل الأجير غليونه ، راح نولب يحدق والنحاس يداعبه
في الصباح البارد الأشهب .

فيما بعد اشرقت الشمس ، عند الظهيرة كان الجو دافئاً على
نحو بهيج ، مضى الرفيقان الجالسان في المقعد الأمامي بالعربة في
مسيرة رائعة ، حينما وصلا جيربرسو اصر الأجير على الخروج
عن طريقه لاصطحاب نولب الى المستشفى لكن نولب سرعان ما
اقلعه ، وافترقا صديقين عند حافة المدينة ، وقف نولب الى
جانب الطريق ، تابع العربة بناظره حتى اختفت تحت أشجار
الاسفندات بالقرب من سوق الماشية .

ابتسم ، يمم شطر طريق لا يعرفه الا ابناء البلدة يمر بين
البساتين ، كان حراً مرة اخرى ، وبوسعهم الانتظار في
المستشفى .

من جديد راح العائد الى موطنه يعب هواءً ونوراً وأصوات
وعبق بندته ، الشعور الباعث على السلام بأن المرء في داره ،

ضجيج المزارعين وابناء المدينة في سوق الماشية ، ظلال أشجار
الكستناء البنية التي تتخللها الشمس ، فراشات الخريف الداكنة
في تحليقها الجنائزي الى جوار سور المدينة ، صوت نافورة السوق
بجداولها الأربعة ، رائحة النبيذ ، الطرق الخشبي الأجوف
المنبعث من باب صانع الأواني المقنطر ، اسماء الشوارع المألوفة
وقد التف كل منها في فيض كثيف لا يقر له قرار من الذكريات ،
بكل كيانه مضي جواب الآفاق يعب نشوة الموطن ، التعرف ،
الذكرى ، الرفقة مع كل طريق وركن وحجر من احجار
الأرصفة ، طوال الأصيل مضي يتجول دونما كلل منتقلا من
شارع الى آخر ، راح يصغي الى ارتطام النهر بالصخور ويراقب
الخراط من خلال نافذة حانوته ، ويقرأ الأسماء المألوفة فوق
لافتات اعيدت كتابتها حديثاً ، فمس يديه في نافورة السوق
وانتظر كي يطفئ ظمأه ، حتى وصل الى نبع آبوت الذي كان ما
زال يتدفق غامضاً كما في الماضي من الطابق الأدنى في دار عتيقة
وينساب بين كتل الاحجار في ضوء منبعه المعتم الغريب
الصفاء ، توقف طويلا الى جوار النهر ، انحنى على الحاجز
الخشبي ، مطلا على الأعشاب المائية القائمة المسدلة الشعر ،
والأسماك الرشيقة السوداء التي راحت تحوم في سكون فوق
أرضية من الحصى المترجرج ، سار فوق جسر المشاة القديم ،
وحينما وصل الى منتصفه ثنى ركبتيه على نحو ما كان يفعل صبيا
ليستشعر الارتداد الرقيق اللين للهيكل الخشبي .

سار الهوينى دون أن ينسى شيئاً ، لا شجرة الزيزفون ، ولا
البقعة الصغيرة المعشبة الى جوار الكنيسة ، ولا بركة الطاحونة
العليا التي كانت يوماً مسبحه الأثير ، توقف خارج الدار الصغيرة
التي عاش فيها أبوه منذ زمان بعيد ، ولبعض الوقت أسبند ظهره
برفق الى الباب العتيق ، دلف الى الحديقة ، تطلع عبر سور
الاسلاك الفظ الى حديقة خضراء غرست حديثاً ، لكن الدرج
الحجري المتآكل وأشجار السفرجل القصيرة المستديرة كانت لا
تزال على حالها ، هنا عاش نولب قبل طرده من المدرسة اللاتينية.
اسعد أيام حياته ، هنا عرف السعادة الكاملة والتحقيق ، المباحج
بغير مرارة ، عذوبة ثمار الكرز المختلصة ، وفرحة رعاية حديقته
الصغيرة ومراقبة الزهور وهي تنمو ، زهور المنثور البديعة ،
اللبلاب المرح ، زهور الثالوث الرقيقة المخملية ، وأقفاص
الأراني ، والمشغل الذي صنع فيه الطائرات الورقية وأنابيب المياه
من فروع اليلسان المجوفة والعجلات الدوارة من كراة الخيط مع
قطع من ألواح الخشب كبديل للمغدف ، عرف الققط فوق
كافة هذه الأسقف ، تذوق الفاكهة في كافة الحدائق ، تسلق كل
الأشجار ، وصنع لنفسه وكنات خضراء للأحلام فوق
أغصانها ، ان هذا الجزء من العالم ينتمي اليه ، عرف كل بوصة
فيه وعشقها ، حوى كل منحدر وشجيرة معنى بالنسبة له وكان
لديه ما يرويه له ، حدثه كل موسم مطير وكل جليد هطل ،
عاش والهواء والأرض يستجيبان لأحلامه ورغباته ، وحتى اليوم

بدا لنولب ان العالم ينتمي اليه بقدر ما ينتمي لأي من اصحاب
هذه الدور والحدائق ، أيهم يمكنه ان يزعم انه يقدرها اكثر منه او
يجد فيها ذكريات تفوق ذكرياته ؟

كان بمقدوره ان يرى بين الأسطح القريبة عليّة مثلثة ، حادة
وسامقة ، في تلك الدار الضيقة كان هاسيس الدباغ يقطن ،
هناك أرخت همسات نولب الرقيقة الأولى مع الفتيات
سجف لنهاية على العاب وافراح طفولته ، عديدة هي الأمسيات
التي حركت بداخله لواعج الهوى ، وهو يغادر تلك الدار ،
ويشق طريقه الى بيته عبر الشارع المتفاقم الظلمة ، هناك نثر
جدائل ابنة الدباغ المصفورة ، وهناك اصابة الدوار تحت وطأة
قبات فرانزيسكا ، لسوف يلقي نظرة هناك في وقت لاحق هذا
المساء ، او ربما في اليوم التالي ، اما الآن فان هذه التذكارات لم
تكن تجتذبه كثيراً ، وكان يسعده لو أنه بذلها جميعاً لقاء ذكرى
ساعة واحدة من الزمن الذي سبقها : طفولته .

وقف ساعة او ما يفوق الساعة الى جوار سور الحديقة
متطلعاً ، لم يكن ما رآه هو الحديقة الحديثة الغربية التي بدت
بالفعل جرداء وخريفية المظهر بشجيرات توتها اليافعة ، كان يرى
حديقة ابيه وحوض زهوره الصغير ، الأزلية التي غرسها في احد
الفصح ، واشجار البلسم البلورية واكوام الحصى الصغيرة التي
كان يودعها السحالي التي امسك بها مرات ومرات دون ان يعزيه
شيء عن أن أيا منها لم يمكث معه ليصبح حيوانه الأليف ، لكنه كان

يظل دائماً في غمار لهفته وامله الذي يملأ جوانحه حينها يمسك
بواحدة جديدة ، اما اليوم فانه على استعداد للتخلي عن كافة
الدور والحدائق ، كل الزهور والسحالي والطيور التي يضمها
العالم من اجل زهرة واحدة من زهور الصيف التي كانت تتفتح
عن اكمائها الغالية ببطء بالغ في حديقته الصغيرة ، وشجيرات
الكميش العتيقة التي يذكر كلا منها تماماً ، مضت جميعاً ، لم
تكن خالدة ولا تطالها يد التدمير ، لقد انتزعها احدهم واطلق
فيها يد الحريق شجراً وجذوراً وأوراقاً ذابلة احترقت كلها معاً ولم
يجزن عليها أحد .

كثيراً ما جاء ماشولد لزيارته هنا ، الآن اصبح طبيباً . سيداً
مهذباً يقود عربة ليعود المرضى ، نعم ، انه لا يزال رجلاً طيباً
جاداً ، لكنه هو كذلك ، ذلك الرفيق القوي الأريب : من
يكون بالمقارنة بالفتى الصريح الحمي البالغ العاطفية الذي عرفه
آنذاك ؟ هنا اوضح له نولب كيف يصنع مصايد للذباب وابراجاً
من الواح الخشب للجنادب ، كان معلم ماشولد وصديقه الأكبر
سناً والأعظم مهارة الذي يحظى باعجابه .

شاخت شجرة الليلك في حديقة البحار ، ذبلت ، غطتها
الطحالب ، حطت يد الخراب على حديقة الدار المغطاة ، وايا
كان ما أقاموه مكانها فانه لا يمكن اطلاقاً ان يكون جميلاً وبهيجاً
ومحكماً كما كانت .

كان الليل يسدل استاره والجو يزداد برداً حينما غادر نولب
بمر الحديقة النامي العشب ، في برج الكنيسة الجديد الذي غير
وجه البلدة قرع جرس عالياً .

دلف عبر بوابة المدبغة ، كان وقت العمل قد انقضى ولم
يكن هناك احد في الفناء ، مر دونما صوت بأرض الدباغة
الرطبة بين الحفر حيث كانت الجلود مغموسة في المواد الكاوية ،
توقف عند السور المنخفض الذي كان النهر يتدفق خلفه بين
الصخور المغطاة بالطحالب ، ذلك كان الموضع الذي جلس فيه
ذات أصيل مع فرانزيسكا واقدامهما العارية تصطدم في الماء .

راح نولب يحدث نفسه ، لو انها لم تجعلني انتظر عبثاً لتغير
كل شيء ، كانت لدي القوة والارادة حتى دون المدرسة اللاتينية
والجامعة لأجعل من نفسي شيئاً يعتد به ، ما أوضح وابسط ما
كانت عليه الحياة ! لقد القى بنفسه بعيداً وفقد الاهتمام بكل
شيء ، لم تطالبه الحياة التي سقطت مع مشاعره بأي شيء ،
عاش لا متميماً ، كسولاً ، جواباً للآفاق ، يحظى بالمحبة في
صور الرجولة ، ويعاني الوحدة في مرضه وسنوات كهولته .

حل به الاعياء ، اقتعد السور ، وراح النهر يغمغم معتماً في
أفكاره ، اضاء النور في نافذة تعلوه ، محذراً إياه من ان الوقت قد
تأخر ، وانه لا ينبغي ان يعثر عليه هنا ، انسل في صمت خارج
فناء الدباغة ، ومضى عبر البوابة ، احكم معطفه حوله ، وفكر

في الرقاد ، كانت لديه النقود التي اعطاه الطبيب اياها ، بعد تأمل قصير يم شطر نزل ، كان بوسعه ان يمضي الى نزل الملاك او البعجة ، حيث كان معروفاً ، ويمكن ان يلقي اصدقاءً ، لكنه لم يكن في حالة مزاجية تسمح له بذلك .

كانت هناك مشاهد عديدة جديدة في البلدة من شأن كل منها ان يثير اهتمامه ، اما الآن فلم يكن يرغب في مشاهدة الا ما يعيد ذكرى الأيام الخوالي ، ثم حينما علم ان فرانزيسكا قد وافتها منيتها شحب كل شيء وبدا له انه جاء الى هنا بسببها وحدها ، كلا ، لا معنى للتجوال في الدروب والطرق حيث يحيه كل اولئك الذين عرفهم بصيحات الرثاء الهزلية ، وحينما تصادف مروره بالمفوضية الصحية في احد الشوارع الضيقة خطر له فجأة ان القائمين على شؤون المستشفى قد يرسلون من يبحث عنه ، مضى الى المخبز وابتاع لفتين من الخبز دسهما في جيوب معطفه ، لم تكن الظهيرة قد حلت بعد حينما غادر البلدة سالكاً طريقاً يؤدي الى الجبال .

عالياً في سمت البلدة ، وعند المنعطف الأخير قبيل الغابة ، اقتعد رجل مترب كومة من الصخور ، مضى في تكسير الصخور الرمادية المائلة الى الأزرق الى قطع صغيرة بمطرقة طويلة اليد .
حدق فيه نولب ، حياه ، وتوقف .

« طاب يومك » قالها الرجل ومضى في تكسير الصخور دون

ان يرفع رأسه .

غامر نولب بقوله : « يبدو أن الطقس يوشك على التغير » .

دمدم الحجار « ربما » رفع ناظريه ، فبهرهما الضوء الساطع
« الى اين تمضي ؟ » .

قال نولب : « روما ، لأرى البابا ، اهي بعيدة ؟ » .

— « لن تبلغها اليوم اذا توقفت كل بضع خطوات ورحت
تضايق الناس فيما هم يحاولون العمل ، لن تقطع الرحلة في
عام » .

«ربما لا ، طيب ، لست في عجلة من امري والحمد لله ،
أنت عامل مجد يا اندريز شايبيل » .

ظلل الحجار عينيه بكفه ، قال مفكراً « أنت تعرفني ،
واعتقد أني أعرفك كذلك ، عليّ فقط ان اذكر الاسم » .

— « لنفترض انك سألت المالك العجوز عن الكسارة لقد
اعتدنا ان ننتظر هناك في التسعينات ، لكنني اظن ان أجله قد
وافاه »

— « وافاه منذ سنوات ، آه ، الآن تذكرته ، أنت نولب ،
اجلس برهة وليطب يومك ! » .

جلس نولب ، كان قد تسلق الجبل مسرعاً فشق عليه
التقاط أنفاسه ، الآن وهو يطل الى أسفل أدرك كم كانت البلدة

الصغيرة جميلة في الوادي ، النهر الأزرق المتألق ، مجموعة
الأسقف البنية المائلة للحمرة ، جزر الخضرة الصغيرة المؤلفة من
الأشجار فيما بينها .

قال لاهثا : « لقد سارت الأمور بك على ما يرام هنا » .

— « لا بأس ، ليس بوسعي ان أشكو ، لكن ماذا عنك ؟
لست المتسلق الذي كنته ؟ أنك تصدر صغيراً مخيفاً ، يا نولب ،
اكنت تزور البلدة العتيقة مرة اخرى ؟ » .

— « هذا صحيح ، يا شايبيل وللمرة الأخيرة فيما أظن » .

— « ماذا تعني ؟ » .

— « رثائي اعتلنا ، الا تعرف علاجاً ؟ » .

— « لو انك مكثت في الدار ، أيها الصديق ، وعكفت على
عملك ، لو كانت لك زوجة وأطفال وفراش دافئ في الليل لربما
كنت اليوم على ما يرام ، لكنك تذكر كيف كان شعوري نحو
هذا الأمر ، اما الآن فقد فات أوان ذلك ، هل الأمر سيء الى
هذا الحد ؟ » .

— « لست ادري ، طيب ، نعم انني اعلم ، انه اسوأ
ياشايبيل ، والأمر يزداد كل يوم تفاقمًا ، من الخير انني وحدي في
هذا العالم لا اثقل كاهل احد » .

— « أيا كان النحوال الذي تتقبل به الأمر فانه يظل من شأنك

أنت ، لكنني آسف لسماع ذلك » .

« لا حاجة بك للأسف ، لسوف نلقى حتفنا جميعاً ذات يوم ، ذلك يقع حتى للحجار ، نعم أيها المعمر ، ها نحن نجلس هنا دون ان يجد احداً الكثير مما يبعث على الابتهاج ، كانت لديك نوايا مختلفة ذات يوم ، ألم تكن ترغب في العمل بالسكك الحديدية ؟ » .

— « أوه ، ذاك تاريخ عتيق » .

— « وأطفالك ؟ هم بخير ؟ » .

— « جاكوب يعمل الآن فيما اعلم » .

— « أحقاً ؟ ما أسرع ما يمر الزمن ، طيب ، لسوف أمضي

الآن » .

— « ولم العجلة ؟ بعد كل هذه السنين ، اصغ ، يا نولب ،

هل بوسعي مساعدتك ؟ ليس لدي الكثير ، ربما نصف مارك » .

— « بوسعك انفاقه ، شكراً على أية حال » .

أراد ان يضيف المزيد ، لكن صدره آله على نحو تعس ، فلفه الصمت ، سقاه الحجار جرعة من زجاجة عصير ، ظلاً لبعض الوقت يحدقان في البلدة ، كانت قناة الطاحونة تأتلق في سنا الشمس وعربة تدلف عبر الجسر الحجري ، وعبر الحاجز راح سرب من الأوز الأبيض يسبح في تراخ جيئة وذهاباً .

مرة اخرى قال نولب « سأمضي ، أشعر بالراحة الآن » .

قال ببطء : « تعلم انه كان بوسعك ان تغدو افضل من جواب آفاق بائس ، ذلك عار ، لم اكن ابداً ممن يرتلون المزامير ، لكني أومن بما جاء في الانجيل ، خير لك ان تفكر في الأمر كذلك ، عليك ان ترد مدافعاً عن نفسك ، ولن يكون ذلك يسيراً ، كانت لك مواهب تفوق بكثير ما لدى آخرين فلم تستفد بها ، لا تغضب مني لقولي ذلك » .

ابتسم نولب ، عاد وميض العايب البريء القديم الى مقلتيه ، ربت على كتف شايل بود ونهض واقفاً .

— « لسوف نرى ، يا شايل ، ربما لن يسألني الرب عن السبب في أنني لم اصبح قاضياً ، ربما يكتفي بالقول : « اعدت ثانية ، ايها الأحق العجوز ؟ » ويعهد الي بعمل يسير كرعاية الأطفال او نحو ذلك » .

هز اندريز شايل منكبيه تحت قميصه الذي يجمع بين اللونين الأبيض والأزرق ، قال :

« لا جدوى من الجدل معك ، تعتقد ان الرب سيلقي بالنكات حينها يقبل نولب » .

— « على الاطلاق ، أو ربما فعل » .

— « لا تتحدث على هذا النحو » .

تصافحا ، دس الحجار عملة معدنية صغيرة كان قد
استخرجها خفية من جيب سرواله في كف نولب ، اخذها نولب
دوئما اعتراض لرغبته في عدم تبديد سرور صديقه العجوز .

ألقي نظرة اخيرة على الوادي الذي شهد مولده ، اوماً
لاندريز شايبيل محييا ، ثم هرع مبتعداً ، اذ امسكت بخنائه نوبة
من السعال ، سرعان ما دار حول المنعطف ، واختفى خلف
الغابات .

عقب اسبوعين اقبل الشتاء فجأة ، بعد ان كانت فترة
ساده الضباب البارد قد تراجع امام ايام مشرقة زانتها
الجريسات المتأخرة عن مواعدها والعليق الناضح البارد ، في
البداية حومت أيام ثلاثة من البرد المرير ، ثم خفت حدة البرد
ليهطل الجليد ثقيلًا متواترا .

طول هذا الوقت كان نولب يضرب على غير هدى ، دون
ان يغادر الأرض التي شهدت مولده اطلاقاً ، شاهد شايبيل مرتين
وهو مختبئ في الغابات ، لكنه لم يفه ببنت شفه ، كان لديه
الكثير مما يتعين التفكير فيه ، خلال مسيراته الطويلة الهائمة غرق
اكثر فأكثر في فخ حياته الضائعة كما يغرق المرفأ في اجمة من العليق
وبعد لما يعثر على معنى او مصدر للعزاء ، حينما شعر بالمرض
يتخطفه والاعياء يجتاحه فكر في العودة الى جيربرسو وطرق باب
المستشفى لكنه بعدما قضى اياما وحيدا وشاهد البلدة قابضة في

الوادي بدت الأصوات التي تصاعدت اليه غريبة ومعادية ، كان يعلم ان المدينة لم تعد مكانه ، من وقت لآخر كان يبتاع بعض الخبز من احدى القرى ، وكانت ثمار البندق وفيرة ، قضى ليلاته في اكواخ الحطابين او في الحقول مفترشاً القش .

الآن كان في طريق عودته من جبل الذئب في غمار العاصفة الثلجية كالا ومنهكا وان كاد قادرا على الحركة ، يجرد قدميه ، يفحص كل غيظه وبقعة تجردت من الأشجار كأنما يمتص اقصى ما بقي له من زاد الأيام الضمنية ، رغم مرضه ونصبه لم يفقد انفة وعينه الحدة ، فمضى يتشمم ويحدق كأنه من كلاب الصيد ، راح يسجل كل مرتفع ومنخفض من الأرض ، كل نسمة ، كل اثر لحيوان رغم انه لم يعد ثمة هدف يلوح امامه ، تبددت ارادته وراحت قدماه تتحركان تلقائياً .

كان في غمرة أفكاره يحدث الرب ولأيام عديدة دون انقطاع كانا معاً لم يداخله الروح ، كان يعلم ان الرب لا يستطيع ان يلحق الأذى بنا ، كانا يتحدثان عن عبث حياة نولب ، وكيف ان الأمور كان يمكن تدبيرها على نحو آخر ولم كان هذا الأمر وذاك على نحو ما وقع ولم يجز بشكل آخر .

راح نولب يكرر مرارا قوله : « كان ذلك حينما كنت في الرابعة عشرة وتخلت فرانزيسكا عني ، كل شيء كان لا يزال بعد في حيز الامكان ، ثم تهشم شيء ما بداخلي ، منذ ذلك الحين

اصبحت بلا نفع ، كان ينبغي ان تدعني القى حتفي في الرابعة عشرة ، ذلك كان الخطأ الكبير ، كان يمكن حينئذ ان تكون حياتي جميلة ومكتملة كتفاحة ناضجة » .

كان الرب يبتسم طوال الوقت وفي بعض الأحيان يختفي وجهه في الجليد لهاطل .

قال مؤنبا : « على رسلك يا نولب ، فكر في شبابك ، ذلك الصيف في اودينفالد والأوقات التي امضيتها في لخشتيتين ، الم ترقص كالظبي ؟ الم تستشعر بهجة الحياة تجتاح كل عظمة من عظامك ؟ الم تغن وتعزف الاكورديون حتى لمعت الدموع في اعين الفتيات جميعا ؟ اتذكر ايام الأحاد في بويرزفيل ؟ وهنريت حبيبتك الأولى ؟ اكان ذلك عبثاً ؟ » .

امعن نولب التفكير ، توجهت افراح شبابه في حسننها المعتم مثل نيران نائية تتقد في الجبال ، كان لها طعم العسل والنبيد الحاد العذب والزخم العميق الذي لريح ليلة دافئة في مقدم الربيع ، يال الهي ، كم كانت جميلة في الفرح والحزن ، واي اسي كان يمكن ان يستشعره لو انه فقد يوما واحدا منها .

اقر قائلاً : « نعم ، كانت حياة جميلة » رغم ذلك راودته رغبة في البكاء وشعر بأنه يوشك ان يتهاوى مثل طفل اصابه الأعياء « كانت الحياة جميلة في تلك الأيام ، حقا كان هناك حزن حتى في تلك الأيام ، وشعور بالذنب في بعض الأحيان لكنه

صحيح ان تلك سنوات طيبة ، من المؤكد ان قلة من الرجال قد
اخذهم الخمار بعمق ورقصوا في خيلاء او عرفوا ليال للهوى
كتلك التي عرفتھا ، لكن الأمر كان ينبغي ان ينتهي في ذلك
الوقت ، فحتى في تلك الأيام كانت هناك قطرات من المرارة ،
اذكر ذلك جيداً ، بعد ذلك تبددت مثل هذه الأوقات الطيبة ،
ولم تعد ابداً .

اختفى الرب في هبة من الريح المثقلة بالجليد ، توقف نولب
برهة ليلتقط انفاسه ، بصق قطرة او قطرتين من الدم على
الجليد ، فجأة أطل الرب ليرد عليه .

— « اصغ ، يا نولب ، الست ناكراً للجميل هوناً ما ؟ ان
نسيانك يضحكني ، لقد تذكرنا الوقت الذي كنت فيه ملك
ساحة الرقص ، وتذكرنا هنريت ، وقد اضطررت الى الاقرار
بأن ذلك كله كان له معناه وان تلك الأيام كانت طيبة جميلة
وجلبت لك السعادة ، لكن ، ايها العزيز ، اذا كانت تلك
مشاعرك نحو هنريت فان عليك ان تفكر في ليزابيث ، او قد
نسيتهما تماماً ؟ » .

مرة اخرى امتد ملمح من الماضي امام ناظري نولب كأنه
آماد جبل بعيد ، على الرغم من ان تلك الفترة لم تكن باعثة تماماً
على السعادة وخالية من المتاعب كالأيام الخوالي الا انها تألقت
بوهج اعمق وبالسنا الهادئ الذي يشع من امرأة تبسم من

خلال الدموع ، انبعثت الأيام التي طال نسيانها والساعات من
قبرها وفي قلبها نهضت ليزابيث بمقلتين جميلتين أترعتا حزنا وقد
احتضنت وليدها .

ناح نولب : « كنت رجلاً سيئاً ! لم يكن من حقي مواصلة
الحياة بعد موت ليزابيث » .

لكن الرب قاطعه ، وب نظرة نفاذة من عينيه البراقتين قال :
« كفى ، يا نولب ، لقد آذيت ليزابيث ايذاءً جماً ، وليس
بوسعنا ان نغير هذا ، لكنك تعلم تماماً ان الطيبة والرقّة اللتين
منحتهما لها تفوقان الأذى الذي أحدثته وانها لم تكن غاضبة منك
للحظة ، ايها الطفل ! الا تستطيع ان تدرك ما يعنيه هذا كله ؟
الا يمكنك ان تفهم انه كان عليك ان تكون جواب آفاق شريد
لتجلب للناس قليلاً من حماقة الطفولة ومرحها حيثما مضيت
ولتجعل مختلف انماط البشر يحبونك قليلاً ، ويداعبونك بعض
الشيء ويشعرون بالعرفان هونا ما تجاهك ؟ » .

بعد صمت قصير اقر نولب ذلك هامساً : « بلى ، لقد
شرعت في التفكير بالأمر ، أصبت ، لكن ذلك كله كان في الأيام
الخوالي حينما كنت في شرخ الشباب ، لم اتعلم من هذا كله
فأصنع من نفسي شيئاً ؟ كان الوقت لا يزال متاحاً » .

كف الجليد عن التساقط ، توقف نولب مرة اخرى
ليستريح ، اراد ان يزيح الجليد عن قبعته وملابسه ، لكنه لم

يستطع استجماع قواه ، كان مرهقا وقد استغرقتة الأفكار ، الآن
وقف الرب امامه مباشرة ، كانت عيناه المتسعتان تتألقان
كالشمس .

قال الرب : « نح ذلك عنك ، ما جدوى الشكوى ؟ الا
تدرك انه ايا كان ما وقع فقد كان طيبا وصوابا وانه ما من شيء
كان ينبغي ان يحدث على خلاف ذلك ؟ هل ترغب الآن حقا في
ان تكون سيدا مهذباً او حرفيا ماهرا له زوجة واطفال يقرأ جريدة
الى جوار المدفأة ؟ الن تفر للتو لترقد في الغابات مع الثعالب
وتصنع الشراك للطيور وتمسك بالسحالي ؟ » .

انتفض نولب مرة اخرى دون ادراك لترنحه تحت وطأة
الاعياء ، شعر الآن بسعادة اكبر تغمره ، راح يومىء في عرفان
مع صدور كل ما يقوله الرب .

قال الرب : « اصغ ، لقد شئتك على ما انت عليه دوغما
اختلاف ، كنت جوابا للآفاق باسمي ، وحيثما مضيت كنت
تجلب للمستقرين قليلاً من الحنين الى الحرية ، وباسمي أتيت
الهنات وسخر الناس منك ، لقد سخرؤا مني في شخصك
واحبوني في ذاتك ، انت طفلي واخي وبضعة مني ، ما من شيء
فرحت به وعانيته لم افرح به ولم اعانه معك » .

قال نولب وهو يومىء في ثقائل : « نعم ، نعم ، هذا
صحيح ، في اعماقي كنت اعرفه دائماً » .

رقد على الجليد ، غدت اطرافه المنهكة خفيفة ، ابتسمت
عيناه المسجورتان .

حينما اغلقهما ليغفو قليلا كان لا يزال يسمع صوت الرب ،
وهو يتحدث ، ولا يزال يتطلع الى عينيه المشرقتين .
تناهى صوت الرب متسائلاً : « هكذا فليس لديك ما
تشكوه اكثر من هذا ؟ » .

اوماً نولب موافقا بضحكة خجولة : « لا مزيد »
- « وكل شيء على ما يرام ؟ كل شيء على ما ينبغي ؟ » .
- « نعم ، كل شيء على ما ينبغي » .

لان صوت الرب ، تردد كما لو كان صوت امه الآن ، شأن
صوت هنريت الآن ، مثل صوت ليزابيث الرقيق الهاديء
الآن .

حينما فتح نولب عينيه مرة اخرى كانت الشمس تأتلق ،
بهرة نورها ، فأرخت جفنيه مسرعاً ، شعر بالجليد يسكن ثقيلًا
على يديه ، أراد ان يزيحه ، لكن الرغبة في الرقاد غدت اقوى من
اي رغبة اخرى .

Scanned with CamScanner

الفهرست

٣:.....	مقدمة المترجم
٧.....	الربيع الباكر
٦٣.....	تذكاراتي عن نولب
٩١.....	النهاية
١٣٥.....	الفهرس

تسنيها

مجموعه اتمه	۶
مکتبہ میز	۷
سماض زمره باله	۶۲
خوبه	۱۸
مجموعه	۵۶۱

هذا الكتاب

- يروي قصة حياة جوال يمضي
ليمنح الدنيا ابتسامة صادقة
ولحظات صفاء.

- انها قصة المجابهة بين البساطة
الظاهرة والتعقيد الخفي.

- قصة اغنت الرواية العالمية
بمعان انسانية واطفت عليها أنماطاً
من التعايش الاجتماعي.

- انها نظرة الى الحياة الأسمى
والأرقى.

الناشر